جريمة في الحي الصامت

سلسلة تحقيقات آل الذهبي - 1

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: جريمة في الحي الصامت**

❖ **المؤلف: سلوان البري**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الثانية 1444 هـ - 2023 م - القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع: 7316 / 2021**

❖ **الترقيم الدولي ISBN: 977978 6839854**

❖ **الرقم الكودي في ببلومانيا: b2l21031-23**

❖ **تصميم الغلاف: روعة للتصميمات 2023 - ببلومانيا**

❖ مدير عام: جمال سليمان – مدير تنفيذي: محمد جلال

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 002026337855 - 002026064518

❖ محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

© جميع الحقوق محفوظة

/bibliomania.eg

جريمة
في الحي الصامت

سلسلة تحقيقات آل الذهبي - 1

رواية

سُلوان البري

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHING

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
www.bibliomaniapublishing.com

2023

جميع الحقوق محفوظة ©

هذه روايةٌ غيرُ مُهداةٍ إلى أحد!!

لأنها أُهديت ذات نهار

-في طبعةٍ مَنسِيَّة-

للأهل والأصدقاء.. والقُرَّاء!

وها قد تخلَّىٰ الأصدقاء..!

ولأنني أخشىٰ فقد الأهل والقُراء،

فسأحجُب -هذه المرَّةَ- الإهداء.

***

لم يكن من عادة أهل الحيِّ الصامتْ أن يستيقظوا باكرًا، لا سيما أن اليوم هو أحد صباحات ديسمبر الماطرة! إلا أن الفاجعة التي وقعت كانت كفيلة بأن تقض مضاجعهم، إذ ارتكبت جريمة قتل بشعة على أطراف المدينة في ذاك الصباح..

جريمة قتل جديدة روَّعت الصغار، وأعادت ذكرى أليمة لأذهان الكبار!

ذكرى ما حدث منذ ثلاثين عاما!

الزمان: السابعة صباحا.. إحدى صباحات ديسمبر 2020

المكان: إحدى مراكز محافظة المنيا

- ما الأمر؟!

أريد تقريرا سريعا عما حدث!

هكذا بدأ المحقق (جمال الذهبي) حديثه بينما يرفع عن عينيه نظارته الشمسية بإهمال.

- جريمة قتل يا سيدي..

الضحية سيدة خمسينية.. تدعى (كوثر).. وجِدت جثتها ملقاةً على أطراف الحي..

يُرجح أن الجريمة قد تمت داخل منزلها نظرا لوجود آثار عنف به.. ولكن جثتها قد جُلبتْ من مسرح الجريمة إلى هنا بشكل ما.

- بل العكس هو ما حدث.

قُتلت السيدة هنا على أطراف البلدة ومن ثم تركها القاتل وذهب ليعبث بمحتويات مسكنها التى أرجح منذ الآن أن باب المسكن قد فتح بشكل طبيعي وبدون أي كسور.. كما أتوقع عدم عثور الرجال علي أية بصمة غريبة بالمحيط.

لقد دبر أمر تلك الجريمة بشكل جيد جدا.. هل نظرت للجرح النافذ بالرقبة؟.. لقد تم بمهارة شديدة.

كانت تحليلات (جمال) سريعة كالمعتاد والتي سرعان ما ستنكشف صحتها فيما بعد...

- نعم يا سيدى لقد دبر بمهارة!

أعتقد أن القاتل طبيب وفى الغالب رجل.

- أو يمكن أن تكون سيدة منزل ماهرة!

لا تنسَ أننا بإحدى محافظات الصعيد أيها..

- الضابط (يوسف) في خدمتك يا سيدي..

- حسنا يا سيد (يوسف).. كما أوضحت لك أننا بمدينة صعيدية.. ومن عادة النساء هنا إعداد كل شيء بأنفسهن خاصة ذبح الطيور.

- أتقصد أن..

- القاتل قد يكون رجلا أو امرأة من أقارب القتيلة يا (يوسف) .. بل ومن أقرب الأقربين إليها!

الزمان: الساعة الثانية عشرة ظهرا.. إحدى أيام شهر ديسمبر 2020

المكان: مقر مديرية أمن محافظة المنيا.

- أنرت مكتبي المتواضع يا (جمال).. كيف حالك يا أخي؟

- هو منيرٌ بأصحابه يا (سليم).. شكرا على حفاوتك وحسن استقبالك.

- عن أي حفاوة تتكلم يا رجل!.. لم نفعل شيئا سوى واجب الضيافة.

لقد أمرت أن تستريح اليوم ببيتي وأخبرت من في المنزل بإعداد كل ما تحب من أصناف للطعام.. وكذلك رتبت الأمر لصديقنا (سالم).

- لا داعي لكل هذا يا (سليم).. سأقيم بمنزل والدي!

- ماذا تقول يا (جمال)، أليست كلها مطارحك.. أليس بيتي هو بيتك؟ إنها مدينتك يا رجل، الجميع يعرفك هنا ويتشرف بوجودك وأنت تصر على الذهاب لمنزلكم المغلق منذ سنوات طويلة، ألم تشتق لنا يا (جمال).. لم عساك تفعل هذا؟

- أرجوك يا (سليم) لا طاقة لي بالكلام الآن، لم أنم منذ أيام اللهم إلا ساعتين أو ثلاث كل يوم،

أريد أن أرتاح ببيتي وكذلك (سالم) يوافقني الرأي، ولا تخف بيتنا ليس بمهجور، فأنا أعمل علي رعايته بشكل منتظم.

- كما ترى يا (جمال).. لن أزعجك أكثر ما دامت تلك رغبتك.

- لا تحزن سآتي مع (سالم) اليوم كي نتعشى سويا في تمام السابعة ولكن رجاءً دعني أنل قسطا من الراحة الآن!

...أنهى (جمال) كلماته وودَّعا بعضهما بأحضان قوية! أو لعلَّها كانت قوية من طرف (سليم) وحده!

ذهب (جمال) للخارج بعدها.. ليجد (سالم) ينتظره فى السيارة!

- ها قد اتيت أخيرا يا (سالم).. ستظل دائما رجل الدقائق الأخيرة!

طوال الطريق لم ينبس الطرفان ببنت شَفَه.. إلا أن قطع الصمت صوت قدَّاحة (جمال)!

- لمَ رفضتَ الذهاب لبيته؟!

نظر (جمال) باستغراب لوهلة ثم صمت!

- لا تنظر لي هكذا، من المؤكد أنه قد قام بدعوتك لبيته.. ومن الواضح أنك رفضت!

والآن أجبني رجاءً لم فعلت هذا؟!

- لنفس السبب الذي دفعك لعدم القدوم معي بالطائرة هذا الصباح!

- (جمال) لا تفعل أرجوك!

- ما بال الجميع يطلب مني ألا أفعل اليوم.. وماذا فعلت أنا من الأساس؟! هل أنا من وُلدت أسعى للشقاق والحروب ومقاطعة ذي القربى؟ وهل أنا من هجَّرت نفسي عن أرضي وبيتي.. وحبي؟!

فى تلك اللحظة توقفت العربة فجأة ولم ينطق كلاهما بحرف.

- الأفضل منذ الآن ألا نتكلم بشيء حتى يتم حل تلك القضية ونعود للقاهرة!

- القضايا..؟!

لن نتكلم بشيء حتى نحل تلك القضايا!

- ماذا تقصد؟!

- لم تكن جريمة قتل السيدة (كوثر) اليوم هي الأولى!

يوجد قبلها سيدتان.. ولكن الوزارة ومديرية أمن المحافظة قررا التكتم على الأمر لحين حله.. خشية من إثارة فزع المواطنين!... إلى أن تكرر مرة أخرى! .... فى الحي الصامت...!

الزمن: السادسة مساءً.. إحدى أيام ديسمبر 2020
المكان: منزل عائلة يوسف الذهبي.. مدينة المنيا.

ذهب (جمال) في النوم فور وصوله لبيت أبيه، وما لبثت بعدها أن طاردته أحلامه كما اعتاد رؤياها في كل مرة يزور فيها موطنه الأصلي من جديد....

أفاق إلى نفسه ثم ذهب مسرعا ليجد (سالم) مستيقظا ويعُد لكلاهما فنجانين من القهوة..

ولم يفت وقت طويل حتى بدأ في تناولها، ونفس كلا منهما تحمل الكثير من الغضب المكتوم ،
وأخيرا قرر (سالم) بداية الحديث..

- حسنا لن أسألك لم فعلت، بما أن هذا السؤال يغضبك بشكل عام.. ولكن هلا أخبرتني الآن بما يدور حولنا؟

- لقد وقعت جريمتا قتل منذ نحو الشهر يا (سالم) بنفس الطريقة التي قتلت بها السيدة (كوثر) اليوم..
والتي كما تعلم هي من السيدات الثريات المعروفات بالمدينة، ولكن ما لم تعلمه أن القتيلات كانوا خادمات نفس السيدة! أي أن البيت بمن فيه قد قتل بترتيب ممنهج ومنظم!
والآن بموت تلك السيدة.. أصبحنا أمام ثلاث جرائم دون حل.

تنهد (سالم) بضيق وجلس على الكرسي المقابل لي دون أن ينظر إليَّ، بينما بادرتُ أنا بإشعال سيجارة.

- توقف يا (جمال) ستموت مختنقا بدخان سجائرك ذات يوم!

- صدقني للأمر منافع، ستتحرر بعد رحيلي، ولن تضطر أبدا للظهور بشخصية د/ واتسون المرافق لشارلوك هولمز عبر مغامراته في عالم الجريمة ودروبها الوعرة.

- يا الله.. أنت لن تصمت أنا أعلم.. هيا تجهز سنذهب ل (سليم)!

- ومن قال أننا سنفعل؟!

- ألم تكن أنت القائل أيها الأحمق؟ ألم تعده بالزيارة في تمام السابعة مساءً من أجل العشاء، وقلت بأنني سآتي معك؟.. هيا قد شارفت الساعة على السابعة.. سنتأخر.

- هل ستدخل حقا لبيت (سليم)! ستدخل بيت عمي!

- نعم!.. وسأصافحه إن رأيته أيضا!

بالنهاية الرجل هو عم ووالد أقرب أصدقائي، ولن أنسى ذلك ما حييت.
بقى ثلث ساعة على السابعة، إن لم تتجهز سأذهب دونك.

- وتدعوني أنا بالأحمق.. وماذا عنك أنت!
قالها (جمال) وهو يصعد غرفته ليستعد للذهاب.. بينما بقى (سالم) منتظرا فى مكانه.

- لم لا يملك الإنسان آلية النسيان..؟
لم لا يمكننا أن نحظى بقليل من السلام حينما نريد..؟
ألا يكفيني معايشة العذاب مرة! لم علي أن أتجرعه مرات..؟!
لم يحيا المظلوم على موعد دائم مع مآسيه؟

كان كل ذلك يدور برأسي بينما أحصل على حمامي الدافيء في بيتي القديم...
بيتي الذي هجرته منذ ثلاثين عاما على غير إرادة مني، هجرته –راغمًا- بأمر عمي وجدي!
جدي الذي رحل عن الحياة بينما صار عمي عاجزا الآن، لا يبرح كرسيه إلا نادرا.

كانوا كالشياطين منذ ثلاثة عقود.. والآن دفن أحدهما تحت التراب و صار الآخر قعيدا لا حول له ولا قوة.

الزمان: السابعة مساءً.. إحدى أيام شهر ديسمبر 2020

المكان: منزل عادل الذهبي.. مدينة المنيا.

كل شيء باقٍ كما تركته، وكأن الزمن لم يتحرك قيد أنملة!

لا شيء مضى.. سواي وسواها!

- أين أنتِ يا حبيبتي؟

متى قدِّر عليَّ كل هذا الكمد يا ربي؟

أنا المحقق الأريب الذي يستعان به دائما لحل معضلات الجرائم، الذي يهاب كبار الرجال تحليلاته، ويخاف بطشه أقرب أقربينه..

أحترق يوميا بنيران الذنب والشوق والندم.

- (جمال) أهلا بك يا أخي.. وها أنت أخيرا أنرت منزلنا يا (سالم).

- كل شيء وله ميعاد يا (سليم)!

- صدقت! هيا تفضلوا سنتكلم ونحن نتناول الطعام.

ها هم يجلسون على نفس الطاولة مرة أخرى، طاولة الذكريات والألم...
يرى (جمال) أمامه فتاة رائعة الجمال في الثامنة عشر من عمرها، جالسة في وداعةٍ، تتناول حساءها الساخن برقة لا مثيل لها.. ابتسم لها في هدوء، كما لو أنها لم تغادر تلك الطاولة أبدا!

- (جمال).. هل أنت بخير؟

يدير وجهه ناحية الصوت وأثر الابتسام لم يبرح وجهه كما لو أن شيئا لم يتغير!

- نعم يا (سليم).. كما ذكرت لك سابقا، إنه الإرهاق!

- تمام.. نأكل الآن ثم تستريح كما تشاء.

- لا وقت للراحة على كل حال.. فلنتناول الطعام سريعا ونرحل لإنجاز العمل المطلوب.

كان (سليم) يحادث ابن عمه بلطف شديد.. بينما كان هو جافيا قاسيا كعادته، على حين بقى (سالم) ينظر لهاتفه غير مبال بالحديث كله.

واستمر الصمت الرهيب بين ثلاثتهم حتى أتت (جميلة) ابنة (سليم)...

- أهلا بك يا عمي..

مرحبا بك سيدي الطبيب!

قامت الفتاة بتحيتهم بتهذيب شديد وجلست في هدوء، هدوء دفعهم لتناول الطعام صامتين.. وكان من الواضح أنه قد أعد بعناية واهتمام فقد كان – للإنصاف– طيب المذاق زكي الرائحة.

- أتمنى أن يكون الطعام قد نال إعجابكم..

لقد قامت (جميلة) بالإعداد بنفسها عندما علمت بقدومكم.

كان (سليم) يحاول فتح أي نوع من الحديث مع ضيوفه.. ولم يجد أمامه سوى الحديث عن ابنته، ربما لأنه يعلم أن (جمال) يحبها كابنته.

- سلمت يداكِ يا ابنتي...

قالها (جمال) متصنعًا الابتسام.. بينما استمر (سالم) في التهام الطعام صامتا!

- كيف حال (سُلاف) يا عمي؟

تساءلت (جميلة) في ودٍّ ووداعة..

- بخير يا عزيزتي.. لم تستطع المجيء لأنها مريضة قليلا، لقد حملتني لكِ سلاما خاصا، وتتنمى أن تقومي بزيارتها في أقرب فرصة.. هذا إذا سمح والدك بالطبع.

- وهل لي أن أعترض؟ إنها ابنتك مُرها بما شئت!

كان (جمال) يرجو في داخله أن يتوقف (سليم) عما يفعله معه.. لم يكن يريده أن يتحلى بكل تلك الأخلاق في مقابل جفائه الواضح.

- أرجوك يا سليم، تكفيني خطاياي القديمة فلا تزدها يا أخي! لعن الله ظلم الآباء والأجداد، يظنون أنهم بهذا ينتقمون من فرد.. وهم في حقيقتهم يجنون على أجيال متتالية بأكملها.

أسرَّ (جمال) هذه الكلمات في نفسه ولم يبدها لهم!

وتوقف بعدها عن تناول الطعام وكذلك فعل (سالم)....

شكرا جزيلا لهذا الكرم.. إعدادك كل شيء كان ممتازا يا (جميلة).

- العفو لم أفعل شيئا.. لم تأكلوا كما يجب يا عمي.

- لا لقد أكلنا بالقدر الكافي والآن سنعمل مع والدك قليلا..

انتهى (جمال) من كلماته.. ثم اتجه بعدها للعمل من مكتب (سليم) الذي كان ذات يوم مكتب جدنا وعمنا.

ولم تنقضِ دقيقة حتى دخل أحد العاملين بالمنزل ليخبر (سليم) أن والده مريض بشدة..

همس الرجل في أذنه ولكن الهمس كان مسموعا بما يكفي ليلفت أنظار (جمال) وصديقه (سالم).

– دقيقة واحدة لن أتاخر، أستميحكم عذرا.

أثناء خروجه دخلت عليهما ابنته تحمل في يديها صينية محملة بالشاي والكعك...

ابتسما لها وما إن انصرفت حتى بدأ حوار الشاي بينهما وكان (سالم) هو صاحب البداية كما يحدث في كل مرة...

– يبدو أن والده مريض.. لهذا استئذن منا سريعا، شفى الله كل مريض.

– طبعا ومن يتمنى غير ذلك.

حاول (جمال) أن يعود إلى صمته فتناول فنجان الشاي وناول الآخر لصديقه..

ولكنه تفهم مغزاه بخفة ونظر له قائلا..

- حسنا، انقطع حديثنا بفنجان الشاي.. ليت صوت صمتك العالي ينقطع أيضا، سئمت صوت صراخك الداخلي الذي تظن أنه لا يسمعه سواك!

- ما أمرك اليوم يا سالم؟ (تكلم جمال بنبرة انفعالية)
هل أصبحتُ أثير غضبك لدرجة أن يزعجك صوت صمتي؟! ما هذا المنطق؟!

انزعج (جمال) من طريقته في الحديث.. تركه وخرج لشرفة المكتب مشعلا سيجارة أخرى!
وقد كانوا في ديسمبر حينها والطقس قارس البرودة في مصر كلها.. وبخاصة في المنيا.

- آه.. لا شتاء كشتائك يا مدينتي..

ومع ذلك لم أحتمل الدفء بصحبة (سالم) وخرجت وحدي لصقيع الشوارع.

من يصدق أن بيتي – البيت الذي عشت به أجمل سنوات عمري- صرت فيه ضيفا بعد كل تلك السنين،

كيف يمكن أن يستحيل صاحب الدار إلى ضيفٍ في بيته!

قصري الكبير وقصر أبي وجدي صار منفاي الذي آتيه غريبا بدعوة مسبقة لتناول العشاء!

أين أنتِ يا (بسمة)..

.... يا بسمة عمري ونورها الذي أطفيء للأبد!

هل تشعرين بي..؟

هل تنتظرينني..؟

هل تعلمين متى يحين اللقاء؟

آه لو تعلمين شقائي.. أنا الميت ولستِ أنت يا عزيزتي.

كان (جمال) يحدث نفسه وهو ينفخ دخان سيجارته دامع العينين،

حتى رأى طيف عمه.. أو بمعنى أصح شبح عمه القديم.

رجل هزيل متهالك، يجلس على كرسيه غير مبالٍ بقرصات البرد التي تأكل عظام أعتى الشباب فما بالك بعظام الشيوخ النخرة، وأمامه يجلس تحت قدميه

ابنه (سليم) وعلى طاولة صغيرة توجد صينية الطعام، وكان يبدو من المشهد أن (سليم) يتوسل له كي يأكل منه إلا أنه يأبى.

لقد خسر عمه في حينها كل شيء عدا عناده وولعه القديم في مخالفة رغبات (سليم).

ييأس ابنه منه بعد دقائق ويتركه.. ولا يرحل قبل أن يقبل يده ورأسه.. والرجل ثابت الهيئة كالأموات!

على حد وصف (جمال)...

كل هذا كان يراه بوضوح من شرفة المكتب التي تعلو شرفة غرفة (عادل الذهبي).. بينما يحدث نفسه قائلا:

- ولأن جدي يحب أن يعلو درجة فوق الناس، صنع لنفسه طابقا أعلى حتى يسير بخطاه المغترة فوق رؤوس الجميع! ولكن ها هو قد زال كما يزول جميع الأحياء من على وجه الأرض.. زال وبقي المكتب لحفيده.

يأس (سليم) من أبيه ورحل، حينها رفع عمي بصره تجاه أخي.. وشعر(جمال) في حينها أنه كان يدرك وجوده منذ البداية.

وتبادل كلاهما سيل من النظرات الحادة والباردة في آن واحد...

فقد حمل كل منها الكثير خلال ثلاثين عاما خلت.. ولكن الزمن الذي نال من كليها لم يستطع أن ينال من عدائهما المتبادل الذي بقي مستعرا في دواخل نفسيهما!

دخل (جمال) بعدها للغرفة هاربا من برودة الأجواء والنظرات معا!

وقرر أن يبدأ هو في الحديث مع (سالم) في هذه المرة...

- إن كان لي في قلبك ولو مثقال من محبة لا تحدثني الآن يا (سالم)!

صمت (سالم) وقطع صمته دخول (سليم) للحجرة..

- عذرا على تأخري لما لم تتناولوا الشاي.. سآمر بتحضير أكوابٍ أخرى عوضًا عنه..

- يا.....

(حاول سليم أن يستدعي خادمًا لإعداد مشروب..)

- (سليم).. من فضلك لقد لبينا دعوتك الكريمة وأكلنا وشربنا بما يكفي، هلا عرضت علينا الآن فحوى القضية التي كُلفت بحلها من الوزارة.

- لك ما أردته يا (جمال) سأحضر الأوراق حالا.

هكذا كان الحال دائما.. يخرج عمي غضبه علي (جمال) وعلى أبيه بدعم مسبق من جدي، ويخرج (جمال) بعدها غضبه من طغيانهم على (سليم).
لم يكن له ذنب..
ولم يكن ل(جمال) ذنب كذلك..
ما باليد حيلة.. إنه القدر..
دائرة الظلم مستمرة دون توقف، ولن تنتهي.
حتى تسيل الكثير من الدماء في مقابلها!

- حسنا ها هي الأوراق يا سادة..

باختصار هناك قاتل متسلسل في المدينة،متخصص في قتل النساء..

البداية كانت في منتصف نوفمبر من هذا العام..
من بيت السيدة (كوثر القاضي)..
كما تعلمون هي سيدة معروفة وتقطن في حيِّك القديم يا (سالم)...

- تقصد الحي الصامت؟!

قالها (سالم) بتهكم.. بينما (جمال) ينظر ناحيته في غضب..
ولكن (سليم) استمر في حديثه ولم يتوقف...

– حسنا باختصار، بدأ الأمر بقتل السيدة (هدى) وهي كما تعلم خادمة قديمة من خادمات بيت القاضي..
عُثر عليها مذبوحة بقطع حاد في جانب الرقبة الأيمن.. كانت الضربة محددة ومُسددة بمهارة، حسبما ورد في تقرير الطب الشرعي الذي أكد أن الضربة جاءت بيد محترف!
أي أن القاتل..

- طبيب، أو جزار، أوسيدة منزل ماهرة اعتادت ذبح الطيور بنفسها.

بالضبط يا (جمال)..

وطبعا الدقة والاحترافية في العمل جاءت من اختيار سكين حاد مناسب لإتمام العملية..

وقد توافر يقين لدى الطب الشرعي أن الأداة قد اختيرت بعناية بالغة وضربت بها المغدورة باحترافية شديدة،

أي أن الأمر قد بُيت له بليل..

- تقصد أننا أمام جريمة مع سبق الإصرار والترصد.

- بالضبط يا (سالم).

- بدأت التحقيقات.. وكالعادة تم سؤال صاحبة المنزل السيدة (كوثر القاضي) والخادمة الأخرى وتدعى (هالة).. والتي هي بدورها -كما تعلمون- شقيقة وتوأم المغدورة.. وكلتاهما أكدتا أنهما لا يعلمان شيئا عن سبب خروج القتيلة

وحدها ليلا.. خاصة وأن من عادة مدينتنا ألا يتجول النساء وحدهن بعد منتصف الليل..

مدينتنا كما تعلم ينام رجالها بعد صلاة العشاء شتاءً..

فما بالك بنسائها!

- أكمل..

- في باديء الأمر لم نجد أي تفسير يا (جمال)، خاصة وأن السيدة كانت بكامل مقتنياتها ولم يسرق منها شيء..

ولم يفت وقت حتى أدركنا أن الجريمة لم ترتكب في الشارع!

لقد قتلت السيدة (هدى) داخل منزل سيدتها!

سكت (سليم) بعد عبارته الأخيرة ثم أكمل وهو متردد...

-(جمال) ، (سالم)،أنا حقا أعتذر عما سأذكره الآن..

صدقني كنت أتمنى لو لم يتم تكليف كليكما بتلك القضية ولكن الوزارة أجمعت على أنكما أنسب اثنين لهذه المهمة.

تبادل في حينها كلا من (جمال) و(سالم) النظرات التائهة حتى أمر الأول (سليم) بأن يكمل حديثه...

– لقد وُجد على فراش السيدة (هدي) صورة لـ(بسمة) رحمها الله وهي قتيلة..
صورة التقطت من فريق البحث الجنائي وقت الحادثة منذ ثلاثين عاما!
صورة لها وهي مقتولة بنفس الطريقة.. وملقاة في نفس المكان!

(جمال)، (سالم).. لقد قُتلت (هدى) بنفس طريقة قتل (بسمة) رحمها الله..
ورميت في نفس المكان...
والوزارة تشك أن الفاعل واحد، خاصة بعد مقتل (هالة) بعدها بأسبوعين، والآن مضى أسبوعان أيضا وقتلت السيدة (كوثر) بنفس الطريقة، ووُضِعَت نفس الصورة!

إن الوزارة تشك أن القاتل عاد مرة أخرى لسبب لا يعلمه إلا الله، ولذلك استعانت بكما لعلمكما بكافة التفاصيل.. فمن سيعلم أفضل من أخ وخطيب بما حدث!

...هذا، بالإضافة لمهاراتكما المعتادة أيضا.

.. لقد عاد مرة أخرى يا (جمال) و كل ما نعلمه أن أمامنا أسبوعين فقط لمعرفته، وإلا سنساهم في دفن سيدة رابعة إن لم نفعل.

ساد الصمت بين ثلاثتهم لبرهة قصيرة، لكنها كانت طويلة على نفوسهم جميعا..

- لماذا لم تتصل بي منذ البداية؟

قالها (جمال) لـ (سليم) معاتبا.

- لو كنت مكاني هل كنت لتنكأ جراح أخيك وصديقك؟

كيف لي أن أخبركما أن هناك من يدنس ذكرى (بسمة) رحمها الله؟

لولا استدعاء الوزارة لك ما كنت لأخبرك أبدا.

صمت كلاهما.. لم يجيبا.. كانا يعلمان في قرارة نفسيهما أنه على حق!

- (سليم).. إلى الآن -ولنكن صرحاء- لسنا على يقين أن الفاعل واحد لكل الجرائم، ربما من يفعل ذلك الآن ما هو إلا مجرد مهووس أراد تقليد الأمر ليحظى ببعض من شعبية قاتل مجهول حتى وقتنا الحاضر.

- وربما يكون هو نفس الشخص يا (جمال) وقرر الظهور الآن.

أخذ (جمال) ملفات القضايا الجديدة من (سليم) بعد أن وعده بأن يكتفي بالقراءة فقط وألا يتجول وحده في المدينة ليلا في محاولة البحث عن أدلة!
وعده (جمال) وكذلك فعل (سالم).. وفي طريقه للبيت اشترى كمية كبيرة من القهوة والشاي والسكر وكل ما يمكن أن يصلح لأن يجعله منتبها لأطول فترة ممكنة.
وبالطبع لم ينسَ شراء كمية كبيرة من السجائر والعصائر وبعض الأطعمة الجاهزة...
فيبدو أن المكوث في المنيا سيطول هذه المرة.

بعد وصولهما للبيت أخبره (سالم) أنه منهك بشدة وسينام الآن وسيكون لحديثهم بقية في الغد..

حمدَ الله على قراره هذا.. فلم تكن ل (جمال) أي طاقة على استكمال الحديث..

وبعدما تأكد من أن البيت موصدٌ جيدا..

أحضر بعض القهوة ووضع علب السجائر أمامه!

وبين يديه ملفات القضية الجديدة.. مبعثرة على المكتب.

وكذلك القضية القديمةأيضا!

القضية التي لم تغادر حقيبته قط...

فقد آمن الرجل أنه سيحل هذه القضية يوما ما!

القضية التي استحالت لغزًا عصيًّا على الحل!

لغز مقتل حبيبته منذ ثلاثين عاما!

الزمان: الساعة السابعة صباحا... إحدى صباحات ديسمبر 2020

المكان: منزل عائلة يوسف الذهبي.. مدينة المنيا.

جلس (جمال) وحده محاطا بالأوراق لنحو ما يقارب العشر ساعات متواصلة، لا يفعل خلالها شيئا سوى القراءة والتحليل وكتابة الملاحظات!

دخل عليه (سالم) كي يوقظه إلا أنه قد صدم بمظهره!

رجل شاحب المظهر محاط بالأوراق والأقلام وما يقارب العشر فناجين قهوة فارغين أمامه تتناثر بجانبهم بقايا علبتين من السجائر على الأقل!

- (جمال) هل أنت بخير؟!

- القاتل في الجريمتين ليس واحدا يا (سالم)!

لكن القاتل الجديد يعلم الحقيقة كلها..

ولذلك يرتكب جرائمه!

إنه ليس بقاتل متسلسل..

إنه يحقق العدالة من وجهة نظره..

إنه يقتص لبسمة يا (سالم)!

كان هذا آخر ما ذكره المحقق (جمال الذهبي) قبل أن تدور الدنيا من حوله ويسقط بين ذراعي صديقه فاقدا للوعي!

.....

ليستيقظ فيما بعد ويجد نفسه في المشفى محاطا بـ (سليم) و(سالم) وعلى وجه كل منهما تبدو علامات الدهشة والخوف!

- ما الأمر؟

أين أنا؟

- حمدا لله على سلامتك يا (جمال).. هل أنت بخير؟

- بماذا تشعر الآن؟

كان (جمال) يتلوى من الألم حرفيا ولا يعلم كيف يجيب كليهما؟

بل لم يعرف كيف يصف لهما فداحة الألم..؟

وللأمانة فهو لم يدرِ حينها أين يكمن المصدر الحقيقي لهذا الألم أهو في قلبه.. أم في جسده!

- أنا بخير! لا تقلقا عليّ..

كان هذا الجواب يغني عن شرح حقيقة ما يعانيه..!

ورويدا رويدا بدأ يفهم طبيعة ما حدث..

- لقد قال الطبيب أنك تعاني من إجهاد شديد وتقرحات بالمعدة، نتيجة تناول كمية كبيرة من القهوة، ناهيك عن السجائر..
هل علمت الآن لماذا طلبت أن تبقى معنا يا (جمال)؟
أنت تقتل نفسك في كل فرصة متاحة!
يا رجل إن لم ترفق بقلب أصدقائك ترفق بقلب ابنتك وأخيك وأبويك..
أتريد أن تموت يا (جمال)؟

- نعم.. أريد أن أموت يا (سليم).. ولكن ليس قبل أن أشهد موت قاتل (بسمة)!

- سأحاول التواصل مع الوزير بنفسي،

لا يمكن أن تكون أنت المحقق المسئول!

ستهلك نفسك أنت غير مؤهل لتلك القضية.

- (سليم)..

من قتل هؤلاء النساء ليس بقاتل (بسمة)..

هؤلاء السيدات قتلوا انتقاما لقتل (بسمة)!

توقف (سليم) ونظر تجاه ابن عمه في دهشة، بينما بدأ(سالم) بالتفكر في أحداث القضايا –باهتمام– لأول مرة منذ وصولهم للمنيا!

.....

الزمان: 21 أغسطس 1990

المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة المنيا.

- عام سعيد يا عزيزي (جمال).. كل عام وأنت بخير يا قلب ماما.

ها أنا أفتح عيناي لأجد أمامي أبي وأمي، كلاهما سعيد وينظر إليَّ في ابتسامٍ وحنو..

الجو جميل والشمس ساطعة.. وستائر النافذة البيضاء تتطاير من حولي!

يوم جميل لا يشبه أيام أغسطس الحارة.. جو رائع يستحق الاحتفال والنزهة.... ورؤية (بسمة)..!

اعتدلت على السرير وأنا مبتسم...فاليوم هو عيد ميلادي الثامن عشر، لطالما اهتمت أمي بهذا اليوم اهتماما خاصا.. وكذلك أبي.

على عادة أهل الصعيد، لا يحتفل الرجال بأعياد ميلادهم.. ولكن أمي القاهرية -كما يصفها جدي- استطاعت أن تصنع توازنا دوما ما بين ثقافة العائلة وثقافتها الخاصة.

كانت تحتفل بي في جو هادئ مشبع بالحب والحنان.. وكان يشاركني في حينها أخي ورفيق طفولتي وصباي ابن عمي (سليم).. ونظرا لوفاة أمه المبكرة اعتبرته أمي ابنا ثانيا لها.. حتى أنها قد أرضعته، فصار أخا لي بكل ما تحمله الكلمة من معني!

- كل عام وأنت سعيد يا بني.. (هنأني أبي بصوته الحاني الرخيم).

- شكرا جزيلا لكم، كل عام وأنتم بخير.

قبلني كلاهما وطلبا مني أن استعد حتي يرياني هديتي لهذا العام، كانت حياتي في ذلك الحين، حياة رخية هادئة..

ما بين قراءة وكتابة خواطر ونزهاتٍ مع ابن عمي وصديقنا (سالم).

لم يكن هناك ما قد يفسد متعتنا..

غير عمي..

أتذكر جيدا ذاك الصباح، كان آخر صباح عيد ميلاد محبب إلى نفسي..
لم أحتفل به بعدها أبدًا!

أخذت حماما باردا.. ارتديت ملابسي وذهبت لتناول الإفطار مع عائلتي.
كان من قواعد عائلتنا أن نستيقظ وقت صلاة الفجر لنتناول قدحا من الشاي، ونذهب لأداء صلاة الفجر في المسجد المجاور للبيت.. كان جدي يقدس مواعيد الصلاة وكان الأمر محببا إلى نفسي كذلك، فكنت ومازلت كلما التمست شيئا من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد التجأ إلى أقرب مسجد أمامي وأصلي.

يومها، كنت أعاني صداعا شديدا لازمني منذ الليلة الماضي، ولذلك بقيت في سريري ولم أذهب معهم... في الصباح كنت قد تحسنت ولذلك قررت أن التزم بباقي تقاليد اليوم وأذهب للإفطار معهم في تمام التاسعة.

- صباح الخير..
- صباح الخير يا ولدي..

قبلت يد جدي وتبسمت في وجه عمي وابنه.

- كيف حالك اليوم يا (جمال)...عساك بخير يا بني.. لشد ما حزنت لأني افتقدت وقفتك بجواري اليوم في صلاة الفجر.. لقد اعتدت هذه الوقفة الحبيبة إلى نفسي يا بني.

- أعتذر يا جدي، كان الصداع يكاد يذهب ببصري من قسوته، فلم أستطع النهوض من فراشي،
.. لقد صليت وأنا مقعد من كثرة الإرهاق.

- لا بأس عليك يا حبيبي.. هل استدعي الطبيب ليراك؟

- لا داعي يا جدي لقد تحسنت.

- حمدا لله..
هيا فلتتناول إفطارك بسرعة فلك عندي مفاجأة.

ابتسمت وبدأت بتناول الطعام..

لا أعلم هل كنت أتخيل أم لا.. ولكني دائما ما كنت أرى نظرات حقد في عيني عمي تجاهي..!

لم أكن متفوقا على ولده في شيء قد يثير غيرته، ولكنه كان مع ذلك يكرهني بشدة.. هكذا كنت استشعر في داخلي من نظراته.

لم يقل شيئا ولم يفعل شيئا، ولكن نظراته وشت بكل شيء!

بعد الإفطار صحبني جدي لغرفة مكتبه..

- كل عام وأنت قوي يا ولدي.. هذه هديتي لك.

وضع جدي بين يدي علبة جلدية فاخرة قد نُقش عليها اسمي.. ثم استكمل حديثه واصفا هديته...

- هذا سلاح فاخر.. صنع خصيصا من أجلك، وقد أمرت بنقش اسمك عليه.

- شكرا جزيلا يا جدي.

قبلت يده واحتضنته.. صحيح أنني لم أكن من هواة حمل السلاح في ذلك الوقت.. ولكنها كانت هدية غالية من جدي الذي أحبه وأجله أشد الإجلال.

- عام سعيد يا ولدي بإذن الله.

ابتسمت له وهممت بالإنصراف حتى استدعاني مناديا مرة أخرى..

- (جمال)....

تذكر دائما يا (جمال) أنك أصبحت الآن رجلا.. والرجل هو المسئول الوحيد عن سلامة عائلته.

منذ الآن أنت المسئول عن كل ما يحدث لك ولذويك! الأمر متروك لاختيارك وحكمتك، فلا تلومنَّ إلا سواك إذا أصابهم شيئًا ذات يوم!

ابتسمت له وتركت المكتب..

لم أدرك مغزى كلماته في حينها، ولكنني أدركته بمرور السنين.

ذهبت إلى غرفتي ووجدت الهدايا أمامي..

هدايا أمي وأبي...و(سليم)..

كانت هدايا أبويَّ هي مجموعة كبيرة من الكتب القيمة.. أما (سليم) فقد أهداني ساعة جديدة غالية..

سعدت بهداياهم.

كان احتفالهم بي بسيطا وهادئا.. هكذا اعتدت من أمي،

تلك السيدة الراقية التي أحبَّها أبي أثناء دراسته الجامعية، قابلها تحت قبة جامعة القاهرة وجمعت بينهما الدراسة والحب!

تزوجا وأتى بها للمنيا..

كانت فتاة رقيقة، ابنة لأسرة متوسطة من ذلك النوع الذي يحفظ بناء المجتمعات بأصالته وحسن تربيته لأبنائه..

سمح جدي بالزواج حتى لا يخسر ولده الكبير.

لم يوافق.. ولم يرفض! إلا أنه تعلم مع الوقت كيف يتقبل زوجة ابنه، خاصة وأنها كانت تحترم عادات العائلة جيدا وكانت تضفي عليها من عاداتها رونقا خاصا، فلم أشعر أبدا بأي تعارض بين الثقافتين..

وقد ازداد تقبل جدي لأمي بعد وفاة زوجة عمي السيدة (جميلة) رحمها الله، والتي كانت بالأصل ابنة أخ جدي..

ماتت صغيرة بعد ولادتها لوحيدها (سليم) بشهور قليلة وترك موتها جرحا غائرا في قلب جدي وأبناءه، إذ لم تكن مجرد زوجة ابن، بل كانت تحتل في قلبه مكانة الابنة.

مات والداها وتركاها أمانة لدى جدي الذي تكفل برعايتها وتربيتها كأبناءه، وعندما حان الوقت زوَّجها بأحد أبناءه.. وما لبثت أن أنجبت (سليم) بعد أن أنجبتني أمي بعدة شهور، فصارت فرحة عائلة الذهبي فرحتين!

إلا أن تلك السعادة لم تدم طويلا، فقد كسر قلب جدي بوفاة كريمة أخيه المفاجئة..

ومنذ ذاك الحين تولت أمي رعاية (سليم)، فأرضعته كما لو أنه فلذة كبدها واعتبرته ابنًا ثانيا لها..

وكان لرحمة أمي على ابن عمي وتربيتها له صغيرًا أثرا عظيما في علاقة جدي بأمي، إذ أعلى من مكانتها لديه واعتبرها سيدة البيت بأسره.

حقيقة أنا أدين لأمي بكل شيء..

هي من أرسَت -بحنانها ومحبَّتها وحسن رعايتها- أساسًا متينا لعلاقة قوية بيني وبين (سليم)، وهي من وسعت -بسعة ثقافتها- مداركي ودفعتني لأحضان الأدب والفنون والتعلق بالتراث...

باختصار، كانت أمي محور الكون عندي، فدائما ما كانت تترك أثرا كبيرا بأفعالها وتسبغ على كل شيء من حولي طابعًا خاصًا، لولاه ما كان لأي شيء في دنياي معنى وقيمة.

أما عن أبي فقد كان مثلي الأعلى في الرجولة والقوة وحسن التدبير.. كان ذلك النوع الصديق من الآباء وكان بحق أكبر داعم لي ولا أذكر أنه قد حدث بيننا أي خلاف جوهري قبل عمر الثامنة عشر.

و بالنسبة لـ (سليم) فقد كان يشبهني في كل شيء..
ولا عجب في ذلك فقد عملَتْ على نشأتنا سيدة واحدة.. وما لبث عمي بعد وفاة زوجته وتولي أمي رعاية ولده الصغير أن انشغل بالمال عنه، فصار عبء تربية الفتيان يقع على عاتق أبي وأمي وحدهما.

في يوم ميلادي... جاءني أحد الخدم ليخبرني بأن عمي أحضر لي شيئا ويريد مني رؤيته، ذهبت لحديقة القصر لأجد مُهرًا صغيرا.

- لقد طلب مني عمك أن أعطيك هذا كهدية يوم ميلادك.. عن إذنك!

كان لعمي في تلك المرحلة عادة سخيفة، وهي تكليف أحد خدم القصر بأن يعطيني هدية ما بالنيابة عنه..
دائما ما تكون الهدية مميزة ولطيفة وغالية كذلك، لكن طريقته في المنح كانت – دائما- غير لائقة!

فيبتعث –فيَّ- بطريقته هذه صراعا داخليا بين القبول والرفض.

ولكن عادة ما كنت أقبل عطايا عمي إيثارا للسلام المنزلي ولأنني -في ذلك الوقت- كنت أحب عمي رغم سلوكه اللامبالي تجاهي.
يومها، أخذت المُهر ووجدت (سليم) يقف مبتسما من بعيد..

- أنت من اقترحت على أبيك أن يحضر لي هذا المهر، أليس كذلك؟!

- كل عام وأنت بخير يا (جمال).

احتضنته.. وشكرت الله في سري على نعمة ابن العم والأخ والصديق الوفي.

هكذا كنا.. وهكذا كان من المفترض أن نبقى!

- والآن اذهب لرؤية (بسمة)، لقد رأيتها منذ قليل وأخبرتني أنها ستنتظرك في مكانكما المعتاد..

هيا قبل أن يحين موعد الغداء.. وإن سأل عنك أحد سأقول أنك ذهبت للنزهة مع (سالم).

كانت (بسمة) هي توأم (سالم) صديقنا أنا و(سليم)..

(جمال)، (سليم)، و(سالم).

هكذا عُرفنا في البلدة بالأصدقاء الذين لا يفترقون أبدا.

بدأت صداقتنا منذ الطفولة.

جمعنا مقعد دراسة واحد، وارتدنا الطرقات والشوارع ونفس أماكن النزهة سويًا..

كنا أشقاءً بحق، لا نفترق حتى وقت النوم!

وكانت (بسمة) أخت سالم الوحيدة.

تعلق قلبي بها صغيرًا..

أحببتها كما لم أحب إنسانا وهكذا بادلتني هي الحب حتى النهاية....

- كل عام وأنت جميل يا (جمال).

إياك أن تنزعه من إصبعك ما حييت.

قالتها وهي تعطيني هديتي على خجل..

خاتما من الفضة نقش عليه اسمي واسمها من الداخل.

لم أنزعه يا بسمة.. يشهد الله عليَّ، لم ولن أنزعه!

ثلاثون عاما وهو في يدي..

كبرت ،تزوجت، أنجبت، حتى أنني قد صرت جَدًّا طال الشيب رأسه ، ورغم هذا لم أنزعه!

- هل أعجبك ذوقي؟

- وهل يمكن ألا يعجبني؟!

بعد أن أعطتني (بسمة) الهدية صمتت قليلا.. وذهبت لتجلس أسفل ظل إحدى الشجيرات.

وساعتها بدأ أول حديث سيغير مجرى حياة كلينا إلى الأبد..

- ما الأمر يا عزيزتي؟

- أنا خائفة يا (جمال)؟

- مم؟

- من أن يدري بأمرنا أحد.

- ومن سيدخل مزرعتي دون علمي؟

أنتِ تعلمين جيدا أن تلك الأراضي كلها ملكي.. لن يزعجنا أحد لا تقلقي.

- لا أقصد جلوسنا هنا..

بل أقصد علاقتنا كلها، أخشى من أن يعلمها أهلك فيبعدوك عني.

ابتسمت لها وأمسكت بيديها في حنان.

- (بسمة)...بسمتي.

لا شيء في تلك الدنيا يقدر على إبعادي عنكِ سوى الموت.

- بعيد الشر عنك.

- اسمعيني جيدا.. لقد قدمت أوراقي لكلية الشرطة وكذلك (سليم).. وكما تعلمين سيدخل أخوك كلية الطب.

وفور أن أتسلم خطاب الترشيح سأتكلم مع أبي، وسيأتي معي أهلي لخطبتك.. وبعد التخرج سنتزوج فورا.

صمتت.. لم تستطع كلماتي أن تضفي في نفسها شيئا من الطمأنينة

- أخشى أن ترفضني عائلتك.

-ولم سيفعلون؟!.. لقد أخبرتك أن أمي تعلم حبي لكِ، وهي في صفي وكذلك أبي لن يمانع،
وما مجال الممانعة أصلا؟

- أنا لا أتحدث عن أمك وأبيك.. أنا أعلم أنهما لا يرجوان سوى سعادتك، ولكن..
خوفي كله من عمك يا (جمال)، لأنه لا يُقيم لي ولا لأخي وزنًا.

- كيف يصلك مثل هذا الشعور؟ هل ضايقك -عمي- أنتِ أو أخيك في شيء؟

- لم يفعل ولكني أحس أنه إن عَلِمَ بعلاقتنا سيفعل، أنا لست مثلك يا (جمال).. أنا مجرد فتاة يتيمة رحل عنها والداها ولم يبق لها في الدنيا كلها سوى أخيها، الذي سيدخل كلية الطب وأمامه مشوار طويل كي يصبح شيئا ما في الحياة.. وأنا سألتحق بكلية الآداب و..

- وستصيرين أستاذة جامعية مرموقة -في يوم ما- كما تتمنين وسنتزوج ونبني سويا عشنا الصغير.

لا داعي لقلقك يا عزيزتي.. لم تكن أمي بأفضل منكِ حالا يوم أن كانت في مثل عمرك، والآن انظري لحالها بعد أن جمعها الله بأبي، وانظري كيف صارت علاقتهما الطيبة مضربا للأمثال.

- يا (جمال) اسمعني.. سالم مجرد عامل في مصنع جدك، صحيح أنه التحق بكلية الطب وصحيح أنه صديقك لكن وقت الجد لن يسمح عمك وجدك بأن تتزوج من أخت عامل في مصنعهم!

- (بسمة).. أنا لن أسمح لتلك الشكوك بأن تنهي علاقتنا، سأفاتح أبوي في أمر خطبتنا اليوم ولن أذهب للجامعة دون أن تعلن خطبتنا رسميا.

في المساء جلست إلى أبي وأمي وفاتحتهما -فعليا- في الأمر..

تقبلا حديثي بصدر رحب.. وأخبراني أن (بسمة) فتاة مهذبة وسيرتها الطيبة تجعلها في نظرهم اختيارا مناسبا بالنسبة لي.. إلا أن اعتراضهما الوحيد كان أننا مازلنا صغيرين بعض الشيء وأنه لا بأس من بعض الانتظار، لكنني طمأنتهما

أن الزواج ليس هاجسي الآن وأن طموحي العملي أهم في تلك المرحلة، ولكن كل ما أطلبه حاليا هو مجرد خطبة رسمية وإعلان لعلاقتنا أمام الأهل والأصدقاء.. ووعدتهما أن لا زواج إلا بعد التخرج والعمل فعليا كضابط شرطة.

- حسنا يا جمال أنا أثق بك وباختياراتك يا ولدي الحبيب..
لا هم لي سوى سعادتك. سأفاتح جدك وعمك في الموضوع وأعدك أنك لن تذهب لجامعتك إلا مستريح الفؤاد.

شكرت أبي كثيرا بعد كلماته لي.. وشعرت لأول مرة في حياتي بالمعنى الكامل للسعادة.
ولكني هواجس (بسمة) انتقلت لي يومها وعرضتها على أبي قائلا...

- أخشى رفض عمى وجدي يا أبي.. وكذلك تخشى(بسمة).

- (جمال) حبيبي.. صحيح أنني أحترم أبي وأخي كثيرا وأقدر رأيهما، إلا أنني لا أتخلى عن مساندة ولدي من أجل أحد! سأفاتحهم في الأمر عما قريب.

بعد كلامي مع أبي ونظرات الفرحة في عيني أمي اطمئنت نفسي وهدأت هواجسي الكثيرة،

وما لبثت بعدها أن تركتهما كي أجلس في الحديقة هاديء البال بعدما زال سبب اضطرابي وقلقي..

وفي بهو البيت وجدت عمي أمامي وكان قد عاد مؤخرا من عمله.

- مساء الخير يا عمي.

- أهلا يا (جمال).. ما الذي يبقيك ساهرا حتى الآن؟

- لا شيء.. فقط أردت انتظارك لأشكرك على هديتك لي.. المهر جميل جدا، سلمت يداك يا عمي.

- أهذا ما يبقيك ساهرا؟ على كل حال الأمر برمته اختيار (سليم)..

أنا لا أهتم بأعياد الميلاد من الأساس!

(كان جافيًا كعادته)

ابتسمت..

لم أجد ردا مناسبا يلائم فظاظته تجاهي سوى تصنع الابتسام!

- ولكن من الجيد أنك مازلت مستيقظا.. لدي خبر جميل سيسعدك.

- خيرا يا عمي؟

- خيرا يا ولدي.. أنا لا أتي سوى بالخير، أتذكر شريكنا السيد/ فاضل؟

- نعم ما به؟

- أنت طبعا تعلم مآثر الرجل وأفضاله علينا ولولا مشاركته لنا لكنا أشهرنا إفلاسنا منذ ثلاثة أعوام.

الرجل له ابنتين وحيدتين لا ولد له ولا عصبة.. وأنت تعلم طبعا أن المال سيذهب في النهاية للفتاتين،

لذلك رأيت أنه من الصواب أن تتزوج أنت و(سليم) من فتيات السيد فاضل!

- ولكن يا عمي...

- لا تخف.. أنا لا أقول زواجا في الحال، لازال أمامكما مشوار طويل في كلية الشرطة -بإذن الله- نخطبهما لكما هذا الصيف وبعد التخرج تتم الزيجة كاملة.

- يا عمي أي خطبة وأي زيجة التي تتحدث عنها؟ أنا حتى لا أعلم شكل من تتحدث عنهما..
فكيف بالله سأتزوج واحدة منهن؟

- وهل هذه مشكلة يا حبيبي، ستتعرف إليهن.. ولك عندي أن أترك لك حق الاختيار،

إن الفتاتين في عمر متقارب مازالتا في المرحلة الثانوية.. يعني باختصار لا حاجة للتسرع في الزيجة من الطرفين، فقط خطبة حتى تكملوا تعليمكم أنتم الأربعة ومن بعدها نفكر في أمر الزواج.
(قالها عمي وهو يبتسم بينما أنا أمامه أقف مذهولا!)

- عمي أنا أشكرك حقا على اهتمامك بأمري دائما وأنا حقا أحبك وأقدرك.. ولكني قد اخترت بالفعل الفتاة التي أود خطبتها.

- ماذا؟!!.. ومن تكون تلك الفتاة؟

- (بسمة) يا عمي.

- (بسمة) من؟.. أتقصد توأم صديقك العامل؟!

- عمي من فضلك صديقي ليس عاملا.. إنه طبيب.. يعمل ليعيل نفسه وأخته وهذا مدعاة للفخر لا للسخرية.. أرجوك لا تهنه ولا تنل من قدره أمامي.

- اخرس أيها الأحمق ولا تتفوه بكلمة أخرى! أتتصور أنني أقضي ليلي نهاري أعمل و أفكر وأدبر كي يكبر اسم عائلتنا، ثم في نهاية المطاف يأتي أحمق مثلك ليهدم بنياني؟

في تلك اللحظة رأيت أمامي الوجه الحقيقي لعمي..

رجل بغيض، قميء، لا ينظر لشيء في دنياه سوى المال، والأسوأ أنه يراني أنا وولده مجرد أدوات للوصول لأهدافه.

- عمي من فضلك توقف عن الصراخ أنا لن أتزوج غير (بسمة).

- وأنا غير موافق وتلك الزيجة لن تتم ما حييت.

- ستتم يا عمي، أبي وأمي قد وافقا وانتهى الأمر.. ستتم!

ما إن أنهيت كلماتي، حتى شعرت بيد كالمطرقة تهوى على وجهي..
في لحظة وقف الزمن عندي، ليس من أجل الضربة ذاتها.. ولكن لأنها أتت من حيث لم أتوقعها!

- اخرس يا كلب، من أنت لتقف أمامي وتقول مثل ما قلت؟!
أنا.. أنا كأبيك تماما كيف تتجرأ على رفض أمري؟!

كان عمي قد دخل في حالة غضب هيستري فأخذ يسب، يلعن ، ويُكسر فيما حوله..

وما هي إلا ثوان حتى اجتمع أهل البيت جميعا!

- (عادل) ما الأمر؟

تسأل جدي وهو ينظر إلينا لثوان معدودة استطاع منها أن يفهم ما جرى..

- هل ضربته يا (عادل).. ضربت ابن أخيك؟ لماذا.. ماذا فعل؟

- هذا الكلب عديم التربية يعاملني معاملة الند!

- تكلم معي بشكل لائقٍ يا عمي واحذر أن تهينني!

- اخرس يا...

رفع عمي يده مرة أخرى وحينها وجد يد أبي تمنعه!

- إياك أن ترفع يدك على ولدي مرة أخرى.. إن كان لأحد في هذه الدنيا حق تأديبه فهو أنا ويشهد الله أنني قد حرمت إهانته على نفسي ولن أسمح لغيري أن يفعل.. أفهمت يا (عادل)؟

- (عادل).. لن أسمح لك أن تضرب حفيدي مرة أخرى أنا أحذرك.

بدأ عمي يشعر بأن الجميع ضده..
أبي وجدي يمنعانه عني من ناحية ،وأمي و(سليم) يقفان بجانبي من ناحية أخرى.. ولذلك هدأ غضبه تدريجيا خشية تطور الأمر إلى ما لا يحمد عقباه.

- حسنا يا أخي. (قالها عمي وهو ينزع يده برفق من يد أبي).
مادام أنه ولدك، كيف تسمح لولدك بأن يطمح للزواج من مجهولة نسب!

- (بسمة) ليست مجهولة نسب يا (عادل)،
(بسمة) فتاة مهذبة وهي توأم صديق ولدي وولدك بالإضافة إلى الصداقة التي جمعتنا بوالدها رحمه الله..
وفي النهاية ولدي اختار، وأنا اؤيده ولا شأن لك في الأمر.

- (عادل)، (يوسف).. توقفا عن الجدال واشرحا لي ماهية الأمر فورا.

- أنا من سيشرح لك يا جدي.. بما أنني أنا من ضُربت.

- باختصار، أنا معجب بـ (بسمة) توأم (سالم) صديقي، وأريد الزواج منها وقد تكلمت مع أبي ووافق.
ووعدني أنه سيفاتحكما في الأمر وسيخطبها لي قريبا، والآن فوجئت بعمي وقد خطب لي ابنة شريككم..
وكذلك أنت ستتزوج أختها بالمناسبة يا (سليم)، هذا ما رآه أبوك مناسبا لكلينا! ولمجرد أنني قلت لا، ضربني وأراق ماء وجهي!

- (عادل) ماذا فعلت؟
لقد اتفقنا ألا تعلن شيئا الآن!
- هكذا جاء رد جدي...

- ماذا؟.. ماذا تقول يا جدي؟

- وماذا كنت تظن يا حفيدي؟ أننا سنترك أموالنا تذهب لرجل غريب!

- جدي إنها ليست أموالنا.. إنها ثروة الرجل ونحن فقط مجرد شركاء له في مشروع ما..

- وإن تزوجت فتياته من رجل غريب ألن يضر هذا بمشاريعنا يا بني؟
تزوج إحدى الفتاتين يا ولدي وليتزوج (سليم) الثانية وفي النهاية كل تلك الأموال ستذهب لكما.
هذا كله من أجلكما أنتما!

- جدي أنا أريد الزواج من (بسمة).

- أنت مازلت صغيرا يا حبيبي لا تدري أين مصلحتك..
كما أنك غاضب لأن عمك قام بضربك، وهذا تصرف خاطيء لا أوافقه عليه وأعدك بألا يتكرر ثانية.. اذهب للنوم الآن يا عزيزي ولنتحدث صباحا.

تركتُ جدي وغادرت، وكذلك فعل (سليم) ومن خلفه أمي.

وفي طريقي لغرفتي سمعت حديث جدي وعمي المرعب..

- ماذا أصابكم؟ هل تتنازعون أمام أبناءكم؟
وأنت يا (عادل) كيف تضرب ابن أخيك هذا لا يجوزأبدا، لا أقبل به هنا!
غدا تُطيِّب خاطره..
لا تحزن يا (يوسف) وأخبر (نادية) ألا تغضب لابنها
.. سأنهى هذا الأمر، هيا اذهب لمراضاة ولدك وزوجتك.

انصاع أبي لكلمات أبيه ورحل وبقيت وحدي أرقب المشهد من بعيد..

- أيها الأرعن ماذا تفعل؟!
أنت لم تتعلم شيئا من أبيك؟ هل رأيتني أضرب أحدا يوما..
هل ضربتك أو أخيك في يوم من الأيام؟
هل في الكون كله من رجل عاقل يعرض على أحدهم الزواج وهو يضربه؟ أين فطنتك وكياستك يا هذا؟

أنا وأنت نعلم جيدا كم أن الولد مغرم بتلك النكرة (بسمة).. ونعلم جيدا عنهما وعن اللقاءات السرية بينهما في الحديقة، كما تعلم جيدا أن ولدك يسانده في الأمر. ثم تأتي أنت بكل حمق ورعونة الآن وتخبره بأنه سيتزوج من تريدها أنت بهذا الغباء؟ ألم تتعلم من أبيك شيئا قط!

لو كانت أمور الحياة هكذا تدار، لكنت أول من هشم رأسيكما في الصغر..

اسمعني هذا الأمر سينتهي وإن كلفني حتى إخفاء هذه الفتاة من على وجه الأرض، ولكن تذكر..

نحن لا نخسر أبناءنا من أجل الغرباء!

سرى الرعب في جسدي عند سماعي لكلمات جدي.. كيف تسنى له أن ينطق بمثل هذه الكلمات؟

الحاج (حسين) الذي لا يفرط في أداء فريضة، يفكر في إيذاء فتاة صغيرة لا حول لها ولا وقوة!

يا الله ماذا صنعت.. لقد عقدت الأمر أكثر!

لم أنم تلك الليلة..

كان الخوف يقتلني على (بسمة) و(سالم)..

ظللت مستيقظا حتى موعد صلاة الفجر،

توضأت ونزلت لتناول الشاي وبعض الطعام الخفيف مع جدي كأن شيئا لم يكن..

وأثناء صلاتي دعوت الله أن يحفظ أحبتي..

وألا يريني فيهم مكروها أبدا.

بعد الصلاة اصطحبني جدي لمكتبه وبدأ يعاملني بتدليل زائد لا يتناسب مع تلك الطبيعة الشرسة التي رأيته عليها –في حديثه لعمي– ليلة أمس!

– لا أريدك أن تغضب من عمك يا (جمال)، إنه يحبك كأبيك تماما لكنه حاد المزاج قليلا..

أخذ مني الحكمة في العمل والتجارة ولكن في لين الجانب والرفق ولطف المعاملة لم يأخذ شيئا البتة.

لا تحزن يا ولدي.. هل أنت متأكد من حبك للفتاة (بسمة)؟

لم أنطق..

- يا ولدي تكلم، أنا أريد أن أفهم ما تريده حتى أحققه لك.

- نعم يا جدي.

- حسنا أنت تعلم أنه لا يمكنك الزواج وأنت مازلت طالبا في كلية الشرطة..

ما رأيك أن نخطب لك الفتاة الآن وتتزوجها بعد التخرج؟

نظرت له غير مصدق..

- ماذا؟

- ما بك أليس هذا ما تريده؟

الفتاة طيبة وأخوها صاحبك وصاحب ابن عمك.. وكلها مسألة وقت وسرعان ما يصير طبيبا،

والفتاة أيضا ستدخل الجامعة.. سمعت أنها ستلتحق بكلية الآداب.

- صحيح.

- حسنا، إذا هي فتاة كاملة من كل النواحي.. تعليم وتهذيب ولها في قلبك مكانة كبيرة..

أبوك وأمك موافقان صحيح؟

- نعم.

- إذا على بركة الله اعتبر الأمر مقضيا بإذن الله..

سنخطبها لك قبيل سفرك ولتتم الزيجة بعد الجامعة،

وبإذن الله تعيشان بيننا وتتسلم عملك أنت و(سليم) في مدينتك، لقد سمعت أن الأوائل يختارون أماكنهم.. أليس كذلك يا حبيبي؟

عليك أن تكدح وتتعلم جيدا حتى تبقى في أحضان عائلتك.. هيا اذهب ولا تُحزن نفسك، سأفعل ما ترجوه!

- وعمي؟!

تسألت في قلق..

- أنا أدرى بولدي سأقنعه بطريقتي، في نهاية الأمر هو ولد صالح لا يعارض أباه.

- شكرا جزيلا يا جدي.

قبلت يده.. كنت فرحا بشدة! ولثانية واحدة تناسيت كل شيء!

ربت على ظهري في حنو وقبل رأسي، وطلب مني أن أذهب لأخبر صديقي أننا في طريقنا لخطبة أخته.

صدقته.. كنت فتى ساذجا تناسيت همس البارحة، وآمَنتُ بوعد اليوم.. وأمِنتُ مكر الغد!

الزمان: ديسمبر 2020

المكان: إحدى مشافي مدينة المنيا.

- ألف لا بأس عليك يا عمي..

(سحبتني برقة صوتها من بحور الذكريات..)

- سلمك الله يا حبيبة عمك.. تعالي يا (جميلة).

- تفضل؟

- ما هذا؟

- بعض الطعام، لقد أعددته –خصيصا- من أجلك.. لقد أخبرني أبي أنك مريض ولديك انسداد في الشهية..

يجب أن تأكل يا عمي أرجوك..

قبلت رأسها وشكرتها على صنيع يديها..

- لم اتعبتِ نفسك يا ابنتي؟

- في الحقيقة أنت من تتعب نفسك يا عمي، طوال عمري وأنا أراك ترهق نفسك..

هذا ليس رأيي أنا فقط.. أنا و(سُلاف) نرى ذلك.. عمي، أرجوك.. ترفق بنفسك نحن نحبك كثيرا ولا نريد أن يصيبك أي مكروه.

على الرغم من الشرخ الكبير الذي حدث في علاقتي ب (سليم) إلا أن هذا لم ينل من محبتي لابنته..

كما أن علاقتها بابنتي كانت قوية للغاية.

- تعال معنا أرجوك.. إنك تحتاج لعناية.. من فضلك!

ابتسمت ولم أجب.. أكتفيت بتناول القليل من الطعام إكراما لصنيعها واستدعيت الطبيب ليكتب لي تصريحا سريعا بالخروج.

- خروجك من هنا فيه مخاطرة فأنت تعاني من...
- أنا أعاني من ثلاث جرائم قتل لم تحل إلى الآن، وقد استدعتني الوزارة لأمسك بالقاتل لا لأقوم بسياحة علاجية في المنيا!

تفهم الطبيب أمري وأذن بخروجي.. وقد تم هذا بعد أن أخذت منه (جميلة) كافة التعليمات ووعدته بأن تكون ممرضتي الخاصة..
وفي طريق عودتنا أخذت تدون منبهات للدواء على هاتفها النقال..

- عمي أنا أسجل مواعيد الأدوية الآن، لن تتناول دوائك في موعده أعلم هذا، و(سُلاف) ليست معك، لذلك أنا من ستتابع معك جرعات الدواء حتى تشفى بإذن الله..

- دائي بروحي لا بجسدي يا ابنتي!

كانت تنظر لي وتصمت.. لا تعرف ماذا تصنع غير الصمت!

أوصلتها للبيت وهناك وجدت عمي يجلس أمامي في الحديقة.
لم أعِرهُ اهتماما تلك المرة.. واكتفيت بحديثي مع (جميلة).

- عمي سأتصل بك من أجل مواعيد الدواء..
هناك مواعيد بعد منتصف الليل.. أعتذر حقا لأنني سأزعجك في هذا الوقت ولكن يجب أن أهاتفك لأذكرك.
والطعام سأعده خصيصا كما أراد الطبيب وأتوسل إليك أن تأكل، لقد سمعت تعليمات الطبيب بنفسك قبيل مغادرتنا للمشفى.

كنت أنظر إليها وأضحك.. كانت تشبه (سُلاف) إلى حد كبير.. ولا عجب فهما ابنتا عم وخالة في آن!
هززت رأسي ووعدتها أنني سأنفذ أوامرها..

- عمي دعنا نعقد اتفاقا الآن، لن أخبر (سُلاف) ومقابل ذلك ستتناول دوائك كما أمر الطبيب.. اتفقنا؟
- تساومينني يا فتاة؟ حسنا أنا لا يهمني مئة مثلك ومثل (سُلاف)!
ضحك كلانا..
كنت سأنفذ أوامرها لأنني أحبها حقا..
أوصلتها حتى باب البيت، فقد كانت أحداث القتل داخل المدينة تُثير قلقي عليها وبينما أهم بقيادة السيارة ثانية سمعت صوته....

- عساه خيرا يا ابن أخي، قيل لي أنك مريض يا ولدي.. حاذر على نفسك، كما تعلم فبلادنا لا تعترف بضرورة ذهاب أحدهم إلى المشفى إلا ساعة الاحتضار!

- (جميلة) اذهبي أنتِ الآن يا عزيزتي.. نتكلم لاحقا.

استمعت الفتاة لكلامي ورحلت..
كانت تعلم أن هناك شيئا ما بيني وبين جدها.. لكنها لا تعلم ماهيته!
كانت تخشاه.. لذلك ما كان منها إلا الانسحاب لحظة رؤياه.

- اطمئن يا عمي لن أموت الآن.. أنا أعلم أنها رغبتك منذ عقود ولكن موعدي لم يحن بعد. ليس قبل أن أقبض على ذلك القاتل على الأقل.

صمت عمي قليلا وبدا عليه التأثر من كلماتي ثم تابع حديثه بنبرةٍ أهدأ....

- ما هذا الذي تقوله يا بني؟ لماذا سأتمنى موت ابن أخي؟
شفاك الله وعافاك اللهم آمين...
ثم عن أي قاتل تتحدث أنت؟ أمازلت تبحث عن قاتل (بسمة)، عساه خيرا يا بني.. لقد مر عُمر طويل أحيا الله فيه عبادا وأمات آخرين ومازلت أنت تبحث عن قاتل خطيبتك.

- اسمع يا سيد (عادل) يعلم الله وكلانا أنك أنت وأبوك من أمرتم بقتلها..

ولكن من نفذ الأمر؟ أنا لا أعلم! لكني أعدك أن أعثر عليه وأحاسبه.. وأحاسبك أنت الآخر، وليتكفل رب السماوات والأرض بأن يقتص لي من أبيك لا رحِمه الله! والآن اذهب لتجلس في مقعدك أيها الخَرِف وإياك مرة أخرى أن تعترض طريقي.

هنا انفجر عمي مرددا...

- أيها القاسي القلب ستموت وأنت مفتوح العينين متحسرا على ما فاتك ومضى..
كل أمنيتي من الله أن أبقى حيا حتى أراك تدخل قبرك أنت وفتاتك لتعلم حينها معنى الموت الحقيقي!

ما إن جاءت سيرة ابنتي حتى انقضضت عليه ممسكا بذراعه في حدة شديدة...

- اسمعني جيدا.. إياك أن تتجرأ ويأتي اسم ابنتي على طرف لسانك، ابنتي هي أغلى عليَّ من روحي وعملي وكل ما أملك..

أقسم بربي أنني سأكون قاتلك إن تجرأت على مسَّها ولو بالقول، إن كنت تكرهها هكذا لماذا أمضيت العمر كله تحاول التقرب منها ومني يا لعين؟

ضحك وهو ينظر لي بينما عيناه تفيضان بالدمع الغزير في آن واحد.. وفجأة بدأت أستوعب ما أنا فيه..

أمامي رجلٌ هرم يرغب في أن يشهد موت عدوه ولا يملك شيئا سوى الانتظار!

تركت يده بعدها وركبت عربتي منطلقا نحو مقر مديرية الأمن...

في المديرية وجدت (سالم) و(سليم) يدرسان القضايا معا..

سليم:

- أنت ما الذي جاء بك إلى هنا؟

سالم:

- (سليم)، لا تتعب نفسك.. فلنحمد الله أنه مكث عدة ساعات فى المشفى من الأساس!

جمال:

- لم لا تفعل مثل (سالم) يا أخي؟ لقد اعتاد طريقتي في الحياة أتمنى أن تعتادها أنت الأخر بدلا من أن نضطر لدفن الضحية الرابعة!

والآن لنبدأ العمل، مبدئيا ما رؤيتك للأمر يا (سالم)؟

سالم:

- تطابق تام بين مقتل (بسمة) ومقتل سيدات المنزل.. نفس عمق الجرح.. نفس توقيت الوفاة تقريبا..

والأهم أن جميعهن قد وجدن في نفس الرقعة التي وجدت فيها (بسمة).

جمال:

- (سليم)، ما تحليلك؟

سليم:

- القاتل واحد.. لا تفسير أمامي غير هذا.

جمال:

- حسنا.. كلاكما لم يفهم ما أعنيه!

كل ما تقولانه أعلمه جيدا، باستثناء أن القاتل واحد..

(سالم)، (سليم)،القاتل هو شخص يعلم جيدا كل ما حدث ل (بسمة).. يعلم ملابسات علاقتنا نحن الثلاثة بها، والأهم أنه يعلم كيف وعلى يد من قتلت!

القاتل شخص منتقم يا سادة، يعلم أدق التفاصيل التي لم يرد ذكرها سوى في أروقة أقسام البوليس والطب الشرعي، والأدهى أن الشخص المنشود يعلم أكثر بكثير مما ورد ذكره في الأوراق والأهم أنه ليس الشخص ذاته.

إنه شخص قريب، قريب منا ومن (بسمة) رحمها الله، قريب لدرجة أننا لا نراه!

القاتل شخص نعرفه جيدا.. والقتيلات يعلمن شيئا ما عن موت (بسمة)، لا تنسوا إنهن من ساكنات الحي الصامت.. ومن المؤكد أن لهن علاقة بما حدث.. إنها مسألة وقت قبل أن تُذبح أمام ناظرينا الضحية الرابعة.

انهيت حديثي وحاولت بعدها النهوض من مكاني إلا أنني شعرت بوجع شديد..

لاحظ كل من (سالم) و(سليم) حالتي فأصرا علي أن أعود للبيت، وعندمها عدت وجدت (جميلة) قد أحضرت طعام العشاء لنا.

سالم:

- ابنتك تهتم بنا كثيرا يا (سليم).. رجاءً أشكرها نيابة عنا، سأذهب لارتاح الآن وأنت يا (جمال) أرجو ألا أفتح عليك باب الحجرة غدا وأرى حولك كل تلك الكميات من الكافيين.

ابتسم ثلاثتنا.. ثم ذهب (سالم) لغرفته بعد أن أنهى كلماته وبقيت أنا وحدي جالسا مع (سليم).

وهنا بدأ حديثنا الحقيقي منذ وطأت قدماي تراب المنيا...

سليم:

- (جمال) أنت متعب للغاية.

جمال:

- نعم أنا متعب ولن أرتاح إلا في قبري!

سليم:

- لا تقل هذا أرجوك.. أطال الله عمرك وحفظك لنا.

جمال:

- لقد أخطأت يا (سليم).. أخطأت بحقك لدرجة أن اعتذاري سيكون بلا معنى..

لم أجد أمامي سواك لأفرغ غضبي عليه.. سامحني أرجوك.

سليم:

- لم يكن الذنب ذنبك يا (جمال)، بل كان ذنبي.. لقد صمتُّ.. صمت على جرم أبي وجدي.

لم أستطع منعهما.. لم أستطع إنقاذك أنت و (بسمة).

جمال:

- (سليم)، اسمعني جيدا..

أنا أشعر بدنو أجلي ولا أريد الموت دون مصالحتك وطلب الغفران منك..

أنت أخي ورفيق دربي وشريكي في أشياء كثيرة.

عندما ننتهي من هذا عدني بشيء واحد، أنه مهما حدث فلن نخسر بعضنا البعض مرة أخرى.

انهمرت الدموع من عيني (سليم) واحتضن بعضنا الآخر بقوة..
وشعرت في حينها -برغم الألم الشديد- بشعور جيد لم أعهده في نفسي منذ سنين..
لقد استعدت أخي مرة أخرى.

مر نحو عشرة أيام لم نستطع أن نصل فيهم لشيء،
لم ير أحد شيئا، تماما كما حدث وقت مقتل (بسمة).....

الزمان: الأول من سبتمبر عام 1990
المكان: مدينة المنيا

ذهبنا لبيت (سالم) و(بسمة)..

كانت سعادتي لا توصف ولا تقدر بثمن..

وافق (سالم) طبعا فقد كان يحب أخته وفرح لها من كل قلبه وتمت الخطبة..

قُبلت أنا و(سليم) في كلية الشرطة..

وسافر كلانا، وانتظم كل من (سالم) و(بسمة) في دراستهما..

ظل الوضع هادئا لفترة، أرى (بسمة) كلما جئت أنا و(سليم) في إجازة من الكلية، وأقضى سائر الوقت مع عائلتي..

أحبت أمي (بسمة) وأصبحت تهتم بها في أثناء سفري..

الجميع سعداء وأبي يساندني كالعادة..

جدى ثابت انفعاليا لا يبدي ما بنفسه..

بينما عمي يبتسم أغلب الوقت على نحوٍ مريب!

- سعيد أنت الآن يا (جمال)..

- الحمد لله يا عمي..

- حسنا افرح مادمت تستطيع، فالحياة صعبة يا ولدي ولحظات الفرح بها عزيزة!

لم أفهم كلماته أو للأمانة عَبَرتني ولم أتوقف أمام المعنى كما يجب.....

.....

الزمان: ديسمبر 1990م

المكان: محطة القطار.. مدينة المنيا.

- (جمال).. (سليم)، انتظراني..

هكذا وجدتها أمامي فى إحدى المرات وأنا مسافر في بداية شهر ديسمبر!

- (بسمة)! ما جاء بكِ إلى هنا؟

تساءلت وأنا متعجب..

- يجب أن نتكلم..

- حسنا سأنتظرك أنا في القطار يا (جمال)..

تركنا (سليم) وسبقني للقطار..

- ما الأمر؟

- (جمال) أعلم أن ما أقوله ليس منطقيا ولكن..
رجاءً احترس من عمك.

- عمي.. ماذا فعل لكِ؟

- لم يفعل.. حتى الآن!
ولكن..

- تكلمي ما الأمر..

بدأت تبكي وهي تضع يدها على فمها..

- تكلمي أرجوكِ..

- إنه يريد إبعادي أنا وأخي (سالم) عن بيتنا..
لقد سمعته يتحدث إلى جدك قائلا أنه إن لم يتصرف ويُبطل تلك الزيجة، فإنه سيخرجنا من بيتنا وأرضنا..
ولكن جدك أخبره ألا يتسرع وأن برأسه تدبير آخر....

- ماذا؟
لن يفعل لكِ شيء.. لن أسافر سأبقى هنا.

- لا، سافر الآن يا حبيبي، فقط احترس!
كل ما أريدك أن تعلمه أنني لن أتركك،
إذا جئت ولم تلقني فاعلم أنه ليس ذنبي وأن شيئا ما قد حدث..
أنا أحبك يا (جمال) ولا أريد تركك..
الموت أهون عليّ.

أمسكتُ وجهها، ورجوتها أن تهدأ..

- لن تتركيني ولن تموتي.. أنتِ خطيبتي.. وستكونين عما قريب زوجتي.
لن أسافر.. سأبقى معك.

- لا أرجوك، لا تفعل!
اذهب، ستُعاقب إذا لم تسافر، وربما تخسر درجات كثيرة
رجاءً، ارحل.. ولكن لا تنس ما أخبرتك به...
الوداع يا (جمال).

بدأ القطار من وراءنا ينذر بقرب رحيله..

- (جمال) هيا..
هكذا ناداني (سليم)..

- اذهب..

مع السلامة يا (جمال)....

انتزعت –برغمي– يدي من يدها وبقى نظري معلقٌ بها حتى رحل القطار..
كانت هذه أخر مرة أراها فيها.. وهي حيَّة!

الزمان: ديسمبر 2020م
المكان: مديرية أمن المنيا.

مر إلى الآن اثنى عشر يوما.. التحقيقات لا تؤتي ثمارها.. لا أحد يفهم ما علاقة الثلاث جرائم ببعضهم البعض، والأخطر أننا لا نعلم بحق من سترتكب الجريمة الرابعة، والأسوأ أنني أشعر بأن صحتي كانت تسوء أكثر وأكثر..
لم أكن عاجزا بهذا الشكل من قبل.. إلا أنني كنت أتحامل على نفسي كي أبدو بخير.
أخاطب ابنتي، زوجتي، والديّ، وأخي يوميا لأخبرهم أني بخير..
يصدقني الجميع ما عدا أبي.

– قلبي يحدثني بأن بك مكروها ما..

- لا تقلق يا حبيبي ولدك بخير.

ادع الله أن أحل هذا الأمر كي أعود لحضنك قريبا.

كلانا يعلم أني كاذب..

ولكن كذبي لم يستمر طويلا حتى جاء اليوم الموعود...

- (سليم)، (جمال).. لم يتبق سوى يوم..!

لا حل أمامنا سوى تأمين مكان الجرائم المعتاد.

وهذا ما فُعل من قبل يا (سالم) ولم يتحسن الأمر، بل ازداد معدل الجريمة أكثر وأكثر..

ما إن نطقت بهذه الجملة حتى شعرت أن روحي تُفارق جسدي ..

- آآآآآه..

(تأوهت بصوت عال بينما أتحدث!)

- (جمال) ما بك؟

- لا شيء يا (سالم) لا تخف.... آآآه

(تلاحقت أناتي مدويةً..)

- (سليم) اتصل فورا بالإسعاف!

(جمال) بماذا تشعر؟

(جمال)، أجبني..

كان هذا آخر ما أذكره.. (سليم) يصرخ في ضباطه المساعدين لإحضار الإسعاف، و(سالم) أمامي يهزني وأنا أضع رأسي على كتفه غير مدرك لأي شيء سوى الألم الذي يعتصر جسدي كله،

وساعتها بدأت أرى طيف (بسمة) أمامي.. ولأول مرة منذ سنوات شعرت براحة غريبة..

- ترى، هل حان موعد لقاءنا يا عزيزتي؟!

الزمان: ديسمبر 1990م

المكان: أكاديمية الشرطة.

ظللت جالسا في الكلية لا رغبة لي في شيء.

كنت قلقا بشدة على (بسمة)..

لا أفهم معني كلمات عمي وجدي،

تذكرت حديثهم القديم الذي استمعت إليه خلسة منذ عدة أشهر..

يا الله، كم أنا أحمق ليتني لم أسافر..

لماذا سافرت وتركت الفتاة وحدها.. لماذا؟

إلى أن أتى موعد إجازتي الأسبوعية ونزلت للمنيا..

كان الحزن يحتل وجهٍ يقابلني ويعرفني من أهل المدينة..

شيء ما جعلني أسرع الخطى للمنزل لأستبين ما يجري..

وما إن وصلت للبيت حتى وجدته يعج برجال الشرطة!

رفع أبي وأمي رأسيهما ونظرا لي في حزن عميق، بينما بقى جدي وعمي صامتين يعلو وجهيهما نظرات محايدة بلا أية تعابير!

- (جمال) و(سليم) أليس كذلك..؟

حمدا لله على سلامتكما، من الجيد أنكما قد أتيتما الآن..

كنت سأبعث بطلب لكلية الشرطة حتى يسمحوا لكما بالعودة لحضور التحقيقات!

- تحقيقات حول ماذا؟

أبي ما الأمر؟!

لم ينطق أبي ورد الضابط عوضا عنه!

- سيد (جمال) باختصار خطيبتك الآنسة (بسمة) مختفية منذ البارحة، وقد تقدم أخوها ببلاغ عن اختفائها..

وها نحن نحقق في الأمر.

ما إن قال الضابط كلمته، حتى شعرت بالدم يغلي في عروقي.. نظرت لعمي بغضب شديد ولم تفت ثانية حتى اندفعت نحوه وجذبته من ملابسه وأخذت أدفعه بعنف شديد!

صرخت أمي وهرع أبي لإمساكي هو والضابط..

- ماذا فعلت بها؟

أين (بسمة)؟

ماذا فعلت أنت وجدي،

انطق ماذا فعلت؟!

- اهدأ يا بني أرجوك..

بدأ جميع من حولي يردد هذه الجملة، أبي، أمي، جدي... إلا أنني لم أسمع سوى صوت نفسي في حينها.

- لن أهدأ أسمعتم؟ لقد جاءتني (بسمة) في منتصف الليل قبيل سفري تروي لي أنها تتخوف على نفسها من عمي وجدي اللذين سمعتهما وهما يخططان لإبعادها وأخيها عن بيتهما.

أين خطيبتي؟

أقسم بالله إن كنت قد ألحقت بها أي ضرر فسأكون قاتلك لا محالة!

- اهدأ يا بني رجاءً..

- (جمال) اهدأ..

تعالت أصوات والدي من حولي يرجواني أن أضبط نفسي إلا أنني لم أستطع...

وبصعوبة أبعدَ الجمع عمي وانتزعوه من بين يدي.

كان الضابط ينظر بحسم ناحية جدي..

كان كمن أمسك بيديه خيط البداية لجريمة لم تتضح معالمها بعد!

أشعل سيجارته في هدوء ونظر صوب عمي مرددا...

- سيد (عادل)، هل يمكنني أن أجد لديك إيضاحا لما قاله ابن أخيك الآن؟

- وماذا يمكنني القول يا حضرة المحقق؟

كلام مرسل غير ذي معنى.. على كل حال أنا مقدر للحالة النفسية التي يمر بها ابن أخي، ولن أعاتبه على ما فعله الآن!

- لن تعاتبني أيها الظالم.. أين هي تكلم؟

- سيد (جمال) اهدأ من فضلك.
أنت طالب في كلية الشرطة لا يجب أن تفقد أعصابك هكذا.
أجبني إذا سمحت يا سيد (عادل).. ما قصة حديثك مع والدك عن إخفاء خطيبة ابن أخيك؟

- كما قلت لك هذا كلام مرسل..
ابن أخي أمامي يدعي أن الفتاة جاءت تشكوني أنا وأبي إليه، وأنا أقول لك أني لا أعلم شيئا..
كلمة أمام كلمة!

- لا يا أبي ليست كلمة أمام كلمة.. بل كلمتان أمام كلمة!
أنا شاهد على مجيء (بسمة) لنا في المحطة حتى تستغيث منك ومن جدي.

نظرت ل (سليم) وأنا متعجب لأمره،
كانت تلك هي المرة الأولى التي يتدخل فيها ويناصرني في شيء.

- لن أصمت يا (جمال).. تلك المرة لن أصمت..

أنا معك حتى نجد (بسمة).

كنت أتبادل النظرات مع أخي وكلانا يبكي بكاءا مكتوما، فقد وقع في نفس كلينا أن هناك سوءًا مروعا لحق بـ(بسمة) أثناء غيابنا عن المدينة.

- وما ذنبي يا ولدي إن جاءت الفتاة تشكوني لابن أخي؟ أنتما مرهقان من مشقة السفر واختفاء (بسمة).

وكما ذكرت لك يا حضرة المحقق أنا لا أعلم شيئا ولا يوجد دليل على غير هذا،

عن إذنكم، أنا متعب قليلا وأريد أن أستريح!

انسحب عمي ومن وراءه جدي..

وحينها شعرت بالغضب يتحول لألم، ألم شديد..

ألم دفعني للارتماء بين أحضان أبي مرة واحدة..

وكانت تلك هي أول مرة أشعرفيها بآلام الكبد!.... ولن تكون الأخيرة!

.....

الزمان: ديسمبر 2020

المكان: إحدى مشافي مدينة المنيا

ها أنا أفتح جفوني و أبي بجانبي يقبل يدي في حنو بالغ وهو دامع العينين...

- (جمال) يا حبيبي.. هل أنت بخير؟

فتحت عيني على صوت أبي..

وبالتدريج بدأت أميز أنني في الوقت الحاضر..

همسات الماضي انتهت، أنا الآن في المشفى للمرة الثانية، ولكن المختلف في تلك المرة أن أبي يجلس أمامي باكيا منكسرا...

- أبي..

- أنا هنا يا بني.. أبوك هنا..

لا تجهد نفسك بالكلام.

- (سليم) و(سالم) هما من أخبراك.. سأعاتبهما على هذا!

- لا يا بني.. لم يخبرني أحد بأي شيء، أنا من شعرت أنك لست على ما يرام..
وصدق حدسي للأسف الشديد
كنت أعلم أنك ستمرض هنا.

- لقد اقتربت منه يا أبي..
اقتربت من معرفة قاتل (بسمة).

- أتوسل إليك أن تتوقف عما تفعله!
ستهلك نفسك، ارفق بأبويك وأخيك وزوجتك وابنتك!
توقف عما تفعله بك وبنا، لقد ماتت (بسمة) منذ سنوات ولن يعيدها للحياة ما تفعله الآن.

- ولكن يا أبي..

- (جمال)..
سمعت صوت (سالم) فجأة وهو يفتح الباب...

- مصيبة يا (جمال) مصيبة...!

- (جميلة).. لقد اختطفت (جميلة) ابنة (سليم)!

لم أشعر بنفسي إلا و أنا أهرول مسرعا خارج المشفى متجها لبيت (سليم)..
وجدته هناك في حالٍ يرثى لها وكذلك عمي..
وصلت أنا وأبي، و(سالم) في ظرف دقائق معدودة...

- الفتاة الرابعة هي (جميلة)

الضحية الرابعة هي ابنتي يا (جمال)....

جلست على ركبتي وأمسكت بيديه محاولا طمأنته ومنعه من البكاء ومنع نفسي معه.. بينما جلس أبي بجانب أخيه واضعا يده على رأسه في يأس مثله.

- لقد تكلمت مع مديرية الأمن في طريقي..
شرطة المحافظة كلها تبحث عنها وإن لزم الأمر سأفتش عنها بيوت المنيا بيتا بيتا حتى أجدها.

- لقد كانت في طريقها إليك.. اختطفت في الطريق.

الخاطف اتصل بالمديرية وأخبرهم أنهم لن يجدوها حتى يعترف قاتل (بسمة) على نفسه!

أنا المخطيء، أنا من ضيعت ابنتي.. كان يجب أن أصدقك هناك من ينتقم منا لأجل (بسمة).

- سنبحث عنه، سنتتبع الرقم، لكن اهدأ رجاءا يا (سليم).

- رقم من شريحة لا تحمل اسمًا يا (جمال).. كيف سيعلمون صاحبها؟!

هكذا اغتال رد (سالم) في قلبي الأمل الباقي لتتبع القاتل!

- انتقم القاتل أولا من سكان الحي الصامت، والآن ينتقم من ابنتي..

ولكن لماذا؟

لماذا يا (جمال)؟ (جميلة) ليست مسئولة.

ما ذنبها يا الله؟

- ذنبها أن جدها هو قاتل (بسمة)!

قالها عمي بعد أن رفع رأسه والدموع تترقرق في عينيه...

نظرنا إليه في ذهول!!!

ورغم يقيني أنه فعلها لسنوات طوال إلا أن اعترافه المفاجيء هزني هزا شديدا.

- نعم أنا القاتل..

اقبضوا علي وأذيعوا الخبر حتى يترك (جميلة).. ليس لحفيدتي ذنب، وليس لي كل الذنب أيضا..

لقد.. لقد أمرت بإخفاءها فقط!

أقسم أنني لم آمر بقتلها أو بقتل سواها في هذه الدنيا.

رويدا رويدا بدأت تتضح الأمور....

في يوم اختطاف (بسمة) زارتها السيدة (كوثر القاضي).. أرملة ثرية كانت بينها وبين عمي علاقة غرامية..

طلب منها عمي أن تدعوها لزيارتها في بيتها ومن ثم تحتجزها داخل البيت وتهددها بالابتعاد عن ابن أخيه لأنه لن يتزوج مثلها على كل حال! وإن امتثلت للأمر سيعطونها مبلغا كبيرا من المال لتبدأ هي وأخوها حياة جديدة في بلد بعيد عن المنيا.. وإن رفضت فستقتل!

لم توافق (بسمة) وحاولت الفرار من البيت فما كان من (كوثر) إلا أن ضربتها على رأسها، مما ترتب عليه فقدانها الوعي ثم استيقظت لاحقا محاولةً الهرب في اليوم الثاني..

في تلك المرة تبعتها خادمات السيدة.. فتاتان تدينان بالولاء لـ(كوثر) ويطيعانها طاعة العبيد فلا يعصيان لها أمرا.. لا أهل لهما ولا عائلة.
نشأتا في رعاية أسرة (كوثر) وظلا على ولائهما لها طيلة الحياة.
أمسكوا بها..
هددتها (كوثر) للمرة الأخيرة..
إما المال والاختفاء وإما الموت ولا ثالث...

واختارتني (بسمة).. اختارت الموت!

حينها، فقدت (كوثر) أعصابها وضربت (بسمة) بسكين في رقبتها!
حملتها الخادمتان وألقيا بها في وسط الشارع في ليلة مطيرة في مثل هذا التوقيت منذ ثلاثين عاما!
رآهم الحي كله!! رأوهم وهم يُلقون فتاة مضرجة بالدم، بين الحياة والموت، ولكن سطوة (كوثر) على سكان الحي كانت قوية.. فصمت الجميع جبنًا وتخاذلا.. ودخل كلٌّ داره وأغلق بابها وأطبق فمه!
تركوها للموت والبرد والوحدة..
لم يتكلم أحد ولم يشهد أحد..
وقيدت الجريمة ضد مجهول حتى جاء هذا القاتل وانتقم منهم!

- لم أكن أريد دماء يا (جمال)، كل ما أردته أن تبتعد عنك -فقط- كي تتزوج ابنة فاضل، كي تتزوج زوجتك الحالية.. لقد قطعت علاقتي بـ (كوثر) بعد قتلها لخطيبتك، كل ما أردته كان رحيلها.. فقط رحيلها!
لم أقصد الموت والدم.. لم أتفق أنا وأبي معها على ذلك.
أقسم لك أنني كنت سأتزوج (كوثر) وتركتها بعد مقتل (بسمة).
أنا القاتل الخفي.. أنا المسئول عن موت الفتاة، ولكن ليس ل (جميلة) أي ذنب..

تصرف يا (جمال)، أرجوك تصرف!

لم أنطق.. بل انطلقت مسرعا نحو الحي القديم..
اليوم هو ذكرى مقتل (بسمة)..
الظلام يسيطر على المدينة.. إن لم ألحق (جميلة) ستقتل خلال وقت قصير!
جريت أنا وأبوها و(سالم) بأقصى ما استطعنا من سرعة،
جريت كما جريت وقتما سمعت أن هناك جثة لفتاة في الحي الذي سمي فيما بعد بالحي الصامت!

لا، ليس لابنة أخي ذنب..
لن أرى تلك البشاعة ثانية، لن أرى فتاة ذبيحة مرة أخرى..
(جميلة) لن تكون (بسمة)!

كنت أجري لدرجة كاد معها أن يتوقف قلبي..
بدأت أمطار ديسمبر بالهطول مثلما حدث ليلة مقتل (بسمة)..
يا إلهي أرجوك إنها فتاة صغيرة..
أرجوك لا ذنب لها سوى أنها حفيدة سفاح...

وصلت ووجدت أمامي جمعا من الناس وعربات شرطة تحيط بالشارع كله..

نفس الجمع الذي وجدته منذ ثلاثين عام..

نفس عربات الشرطة

نفس صرخات النساء..

وهناك وجدت ما كنت أخشاه..

ابنة أخي ملقاة في وسط الشارع والبرد والأمطار..

مذبوحة والدماء تغرق ثيابها كلها!

سقطت على الأرض ممسكا بقلبي كما سقطت قبل ثلاثين عاما.. نفس المشهد!!!

نفس الألم..

ولكنه هذه المرة أقسى وأشد!

فألم فراق الأبناء لا يضاهيه ألم أخر

بكيت -وأنا عزيز الدمع- بكيت بكاء العاجز المفجوع..

ومن ورائي..

وجدت (سليم) يسقط أرضا محاولا احتضان ابنته..

ما لبث أن صرخ بعدها صرخة مدوية لم يسبق لي أن سمعت أبشع منها في عمري كله!

.....

في المشرحة وقف (سليم) ينظر إلى جثة ابنته دون أي حراك منه..

عيناه محمرتان متورمتان بطريقة صعبة..

الدموع متحجرة في مقلتيه..

دماء ابنته تغرق ملابسه..

وهو واجم مذهول من فرط الصدمة ولا يكاد يتحرك..

ظل ينظر إليها قرابة الساعة دون حراك..

لم يترك مكانه إلا عندما سحبناه أنا و(سالم) للخارج..

أو بمعنى أدق سحبناه وأجلسناه كمن يضع شيئا على كرسي..

هو معنا ظاهريا لكن عمليا كان يبدو أنه في عالم آخر...

- فعلت كل هذا من أجل المال يا (عادل) وانظر نتيجة فعلتك، (بسمة) قُتلت.. وأنا تزوجت من إحدى فتيات (فاضل) كما تريد.. وكذلك فعل (سليم).. ولحظك الأسود توفيت زوجة (سليم) ووالدها على قيد الحياة.. وورث ابنك وحفيدتك ثلث التركة فقط.

وأخذت زوجتي باقي تركة أبيها! وها قد مات أبوك الذي لم يرد أن يختتم حياته بعمل واحد جيد، فكتب لك قصر العائلة بيعا وشراء بعد أن طردنا من بيته عقب مقتل خطيبتي بذريعة أنني شهدت على جدي وعمي زورًا!

نُفيت أنا وعائلتي لأنني نطقت صدقًا!

والآن حفيدتك ماتت.. حفيدتك أيها الرجل.. ابنة ابنك.. ذبحتْ كما ذبحتْ (بسمة)،

هل أنت سعيد الآن؟! القاتل يعلم أن وقت محاكمتك ومحاكمة (كوثر) قد انتهت.. لقد مضى ثلاثون عاما سقطت فيها التهمة وسقطت الجريمة..

القاتل كان يعلم أن الوزارة ستستعين بي وبـ (سالم) لحل الأمر...

كنت ترى أمامك ثلاث جرائم ذبح لثلاث سيدات وتعلم سببها وتركتنا ولم تتكلم..

أنت لم تقتل (بسمة) وحدها..

أنت تسببت بمقتل خمس سيدات..

أيها الجبان!

كنت قد فقدت أعصابي تماما وأوشكت على ضرب عمي لولا تدخل أبي واحتضانه لي وهو يبكي بحرقة...

ولكن كان هناك من هو أقوى تأثيرا من أبي عليَّ في حينها...صوت (سليم)..

- كنت أعلم يا أبي، طوال تلك السنوات كنت أعلم.

ولكن ليس بيدي دليل، كنت أراك مع هذه المرأة في مواضع أخجل عن ذكرها، المرأة التي وجدت (بسمة) قتيلة على مقربة من بيتها. (بسمة) بالأمس.. وباليوم ابنتي.

أنا المتسبب الوحيد..

أنا من بقي معك كان يجب أن أتركك مثلما تركك البقية..

أنت لم تستحق أحدا في هذه الدنيا سوى أبيك..!

(جميلة) قتلت يا أبي! قتلت بسبب صمتك وصمتي..

انتهى الأمر...

كان (سليم) هو الوحيد الذي لا يبكي!

كان أبوه يبكي ويصرخ ويضرب الأرض بيديه وقدميه، بينما أنا وأبي و(سالم) نبكي صامتين..

و(سليم) ثابت هاديء يلقي بكلماته كالخنجر ولا يبالي!

ظهر تقرير الطب الشرعي مطابقا لتقارير القتلى السابقة..

علمنا دافع الجرائم الأربع..

ولم نعلم من منفذها!!!

.....

الزمان: ديسمبر 2020

المكان: مدافن آل الذهبي.. مدينة المنيا.

في الجنازة حضرت أمي وزوجتي وابنتي وزوج ابنتي..

كانت حالة زوجتي وابنتي سيئة للغاية..

خاصة ابنتي (سُلاف)..

كانت مُقرَّبة من ابنة خالتها جدا..

لم تستطع أن تتصور أن هناك من يقدم على قتل قريبتها وصديقتها بتلك الطريقة البشعة،

لكنه القدر.. لا نملك ردَّه!

حاولت تهدئة ابنتي قدر المستطاع..

وبعدما يئست، تركتها برفقة زوجها وأبوي وزوجتي ورحلت.. ذهبت لمقر العمل، كنت أجهز اعتذارًا عن التحقيقات.. لقد خذلت كل فتاة اعتمدت عليَّ حتى الآن.

(بسمة).. (جميلة)..

قلبي يعتصره الألم..

أشعر بالعجز..

بالأمس فقدت حبيبتي، واليوم لحقت بها ابنة أخي!

يا الله..

حاولت أن أنشغل في كتابة الاعتذار..

وساعتها رأيت أمامي الضابط (يوسف) يقف مطأطىء الرأس مكسور القامة..

- سيدي، أحر تعازي لسيادتك ولسيادة العميد (سليم).

هززت رأسي ولم أنطق...

- سيدي لعلك الآن بصحة أفضل فقد علمت أنك غادرت من المشفى وقتما علمت بالخبر..

أستميحك عذرا يا سيدي ولكن هل لي أن اسأل من أعلمك بالخبر؟

نحن لم نرسل أحدا إليك ليُعلمك!

- الطبيب (سالم) هو من أخبرني.

رددت بلا مبالاة....

- وكيف علم يا سيدي؟

إنه لم يأت للمديرية منذ ذهابك للمشفى!

إنه لا يأتي للعمل بدونك أصلا...

لحظتها سقط القلم من يدي..

تراجعت للوراء ورفعت رأسي صوب الضابط..

- سيدي لقد وردنا في يوم مقتل الآنسة (جميلة) اتصالا هاتفيا يفيد باختطافها وأنه لن يفرج عنها حتى يعترف القاتل الحقيقي بجريمته، وقد تم الأمر من رقم مجهول الاسم والهوية.. كما تم تغيير نبرة الصوت بواسطة إحدى برامج الهاتف الذكي، وعلى ما يبدو أن القاتل قد تخلص من شريحة الهاتف فيما بعد.. فلم نستطع أن نحدد مكان الاتصال أبدا!

بعد ذلك أخطرت مديرية الأمن السيد (سليم) بالأمر...وتوجهنا جميعا لبيته..

- فكيف علم السيد (سالم) بما حدث ليخبرك به؟!

هاتفت (سليم) فورا..

لم يجب..

اتصلت بأبي.

- أبي.. أين (سليم)؟!

- أخذه (سالم) لبيتنا حتى تهدأ أعصابه قليلا!

- (يوسف) استدع قوة شرطة لبيتي حالا.

أخذت سلاحي وجريت للخارج، ومن ورائي الضابط يصرخ في جمع من الضباط والعساكر للحاق بي.

كنت أقود على أعلى سرعة، وأنا لا أتوقف عن مهاتفة (سليم)..

يا الله أرجوك قف بجانب (سليم)، يا الله لا تُريني فيهِ مكروهًا أبدا

كيف لم أفطن؟؟

كيف كنت أحمق لتلك الدرجة؟!..

الآن أتذكر كل شيء وأرى الأمور أمامي كشريط متتابع..

عندما أخبرني بموعد عشائي في بيت عمي..

ولم أكن قد أخبرته شيئا بعد..

وعندما كان يتعامل بهدوء وسلاسة في مواقف لا يمكن أن يكون هادئا فيها هكذا!

وعندما جاء يهرع إلي ليخبرني وحده بأمر خطف (جميلة)..

وعندما أخبرني أن القاتل تحدث من رقم مجهول الهوية دون أن يخبره أحد من أفراد الشرطة بالتفاصيل!

غيابه المتكرر الذي لم أكن أعلم سببه،

اعتراف عمي الذي لم يحرك فيه ساكنا..

تعامله الجاف مع (جميلة)..

كل شيء كل شيء كان يحذرني منه وأنا من رفضت التصديق..

يا الله لا تفجعني في (سليم)..

ليس له ذنب..!

وصلت لبيتي في أقل من خمس دقائق وبمجرد أن دخلت وجدت (سليم) ينهي صلاته في إحدى أركان البيت..

كنت غير قادر على التقاط أنفاسي من كثرة الخوف والقلق، حتى أن (سليم) قد خاف علي ونهض ليمسك بي..

- حمدا لله أنك بخير يا أخي، هيا يجب أن نذه....

أوقفني صوت الرصاص عن النطق...

(سليم) أمامي يشد علي يدي ونظراته تجاهي جامدة إثر تلقى الصدمة..

وأنا أمامه دامع العينين مشلولا عن الحركة..

إلى أن رأيته يسقط أرضا ومن وراءه رأيت (سالم) مصوبا مسدسه نحوه..

- (سليم)...

صرخت باسمه بأعلى صوتي وهو يسقط بين ذراعي...

- (سليم).. انظر إلي..

ستكون بخير.. فقط ابقَ معي أرجوك..!

كنت أنت.. كنت طوال الوقت أنت!

لم أرك.. لم أرد رؤيتك!

أنت القاتل، قاتل صديقك وابنته وثلاث سيدات؟!

ضحك (سالم) في هيستريا شديدة وهو يصرخ في:

- قاتل! أنا القاتل أيها الأحمق؟!

وماذا عن عمك الذي أمر بقتل أختي كما لو كانت حشرة، ماذا عن جدك، ذاك الكلب المسعور الذي كان يعلم ووافق ابنه،

بل ماذا عن (سليم) الذي كان يعلم أن أباه وجده وراء الأمر كله، بل ماذا عنك أنت؟!!

لقد تزوجت تلك الفتاة الثرية فور تخرجك..

نسيت (بسمة) وتخرجت وتزوجت وأصبحت محققا شهيرا!

ماذا عن أختي التي ذبحت بدم بارد ورُميت جثتها في العراء، ورآها سكان حي بكامله ولم ينطق ساكنوه.

أعوام وحياتي متوقفة عند مشهد ذبحها.. هل تعلم أنني أصبت بنوبات تشنج بعد الحادث؟

كل هذا الألم والموت.. من أجل ماذا؟ ألأنها تجرأت وأحبت سليل عائلة الذهبي؟

لقد لجأت إليك، جاءتك تسعى وتقول أنقذني وماذا فعلت يا (جمال)، ركبت القطار مع ابن عمك وعدت لتشهد اختفاءها!

ماذا كنت تظن.. هل ظننت أن عمك وجدك سيتركانها في حالها؟

سيتركان اليتيمة أخت العامل في مصنعهم تتزوج ولدهم؟

وها هو ابن عمك وأخوك.. ماذا فعل هاا..؟

لقد صمت عن جرم أبيه وجده، ومضى وتخرج وأصبح عميد وتزوج شقيقة زوجتك!

وعشتم في تبات ونبات وأنجبتما البنات وورثتما واتسع ملككما، وأنا..

أنا الحقير ابن الحقراء، أمضيت العمر وحدي بلا زوج ولا ولد..

أحيا وحدي وأمرض وحدي وتمر علي الذكريات والأماني والأحلام وحدي..

بينما قتلة شقيقتي يعيشون في النعيم!

لقد فكرت في أن أقتل عمك ولكن بما يفيدني..

انا لا أريد موته..

أنا أريده أن يشهد ما جنته يداه.

أريده أن يرى أولاده يموتون تباعا..

أنا من خطف (جميلة) وتعلم أين ذبحتها؟ في بيت (كوثر)

وأين سأعثر على مكانٍ أفضل منه؟!

انتهت التحقيقات وأغلق البيت.. لسنوات وأنا أحفظ تقرير الطب الشرعي لمقتل أختى..

تخصصت لأكون طبيبا بمصلحة الطب الشرعي..

لازمتك وأنا أمقتك..

يوما بعد يوم أزدادُ حسرة وأنا أرى (سُلاف) و(جميلة) تكبران أمامي.. الآن فقط شرعت في أخذ حقي،

ذبحت الفتاة كما ذبحت قتلة أختي.

- رميت بها على الطريق.. وجئتك..

أتعلم كيف توصلت إلى قتلة أختي يا صديقي العزيز؟

من إحدى السكارى في بار حقير كنت أتردد عليه! كنت أشرب حتى أنسى ألمى بينما أنت وابن عمك في كلية الشرطة!

... إلى أن سمعته.. سمعت أحد الفقراء من جيراني يروي ما حدث..

لقد رُميتْ أمامنا ولم ينطق أحد!

أخرسنا الفقر والجوع، وخشية البطش..

جلست بجانبه وأنا أرتجف،،وسمعت كل شيء.

كنت أبكي أنا والرجل.. نبكي قهرنا..

رحلت يومها وفي نيتي شيء واحد.. الانتقام من عمك وابنه!

ربما إلى يومنا هذا لا يدري الرجل حتى ماذا قال..

لقد كان مخمورا.. لم يعلم أن كلماته كانت بداية طريق الانتقام بالنسبة لي!

وبالمناسبة أيها الأحمق.. كبدك ليس مهترءًا بسبب السجائر والقهوة! بل بسبب الأدوية التي داومتُ على إعطائك إياها طوال الأسبوعين الماضيين..

عقابك أنك ستشهد موت أحبابك يا (جمال)، دفنت (جميلة) وستدفن ابن عمك.. وقريبا ابنتك!

انهى (سالم) كلماته ووجدته يصوب سلاحه مرة أخرى باتجاه (سليم)..

وفي جزء من الثانية سحبت سلاحي.. وأرديته قتيلا بثلاث طلقات في القلب!
في قلبي قبل قلبه!
ليسقط سريعا في الحال...

أما (سليم) فكان يحتضر بين يدي..
ولا يردد سوى عبارة واحد...

- أنا آسف.

اصمت يا (سليم) أرجوك.
أنا الذي يجب عليه أن يعتذر أنا من تركتك.. لم يكن لك ذنب.
ستكون بخير، الضابط (يوسف) آتٍ في الطريق مع المساعدة..
أرجوك تحمل..
لا تتركني يا (سليم).

ابتسم لي ابتسامة طويلة،
ثم أغمض عينيه إلى الأبد.

ظللت أبكيه واحتضنه حتى أتى الضابط والقوة المصاحبة له، لم يتحمل عمي عندما علم بموت ابنه..

وقبله بعدة ساعات حفيدته الوحيدة..

توفي بنوبة قلبية أثناء التحقيقات!

لقد فقدت ثلاث أفراد من عائلتي في أقل من يومين!

.....

الزمان: ديسمبر 2020

المكان: بيت عادل الذهبي.. مدينة المنيا

- صار كل شيء لك ولأخيك الآن!

يرحل الناس ويتركون وراءهم ما عاشوا العمر كله من أجل جمعه..

يرحلون من دونه.. ويحاسبون عليه كله.

قالها أبي وهو ينظر لي في حسرة

أغلقنا البيتين من وراءنا..

أخذت ما تبقى من عائلتي ورجعت للقاهرة..

أخبرني فيما بعد طبيبي المعالج أنني تعرضت لتليف بالكبد..

سأحيا مع الآلام لما تبقى من عمري..
هذا هو ما أراده (سالم)
أن أتألم..
وكأني طوال عمري الماضي كنت سعيدا!

والأسوأ أنني اكتشفت بعد ذلك أن مسدس (سالم) كان خاليا من أي طلقات أخرى..
لقد وضع طلقة واحدة وضرب بها (سليم) في سويداء القلب..!
انتظر حتى يخبرني بكل شيء وبعدها رفع فوهة مسدسه الفارغ في اتجاه (سليم)
كان يعلم أنني سأختار أخي وأقتله هو.
قتلتُ بيدي صديقًا، وهجرتُ الآخر حتى مات.

والآن أنا وحدي تماما!
يفترسني المرض والألم والغياب..!
لا أنا بحيٍّ..
ولا أنا بميت..
ولكني بينهما!

تمت بحمد الله....

شكر خاص :

إلىٰ د/ بريهان أحمد، الوفية في زمنٍ عزَّ فيهِ الأوفياء.